الحُلْم الغريب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحُلْم الغريب

الطبعة الأولى

1446هـ - 2024م

رقم الإيداع

2024/0000

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-744-000-0

الدار العالمية للنشر والتوزيع

ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي-محطة مصر - الإسكندرية

محمول: ٠١٠٠٥٤٠٦٤٠٣ ٢+/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٢٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٢٠٣+

E-mail: alamia_misr@hotmail.com

الحُلْم الغريب

د. هناء الشنواني

الدار العالمية للنشر والتوزيع

رأي الأستاذ الدكتور/ إبراهيم عوض

أستاذ النقد الأدبي في جامعة عين شمس

أسلوبك منساب ومتماسك إلى حد كبير، لديك مقدرة على شد القارئ، وهذا مهم فى القصص، الحوار رشيق ويعبر عن الشخصيات، بارك الله فيك وإلى الأمام والأعالى دائما أبدًا.

الحُلْم الغريب

دوى صوت الرعد عاليًا، وانهمر المطر كالسيل، كنت جالسًا في مدرج الجامعة وصورة الأستاذ أمامي مهتزة غير واضحة، كان غاضبًا لذلك لم يعلق أحد من الطلبة على صوت الرعد كالعادة، بالرغم أن صوته كان أشد من المعتاد، كنت متعبًا وأقاوم النعاس، حاولت التحديق في وجه الأستاذ حتى أفيق، ساعدني صوت الأستاذ الجهوري على عدم الاستغراق في النوم، ولكن الرؤية لاتزال غير واضحة تمامًا كأن الضباب يملأ جو المدرج، **علا صوت الأستاذ أكثر وبنبرة أشد:**

المنهج.... أكرر وأقول: المنهج، كل طالب سيجيب عن أي سؤال بإجابة لا أريدها سيرسب، وعليه أن يتحمل النتيجة، في العام الماضي كتب أحد الطلاب إجابة غير التي أريدها ظن أنها فهلوة وسينجح.

ثم تقدم في الممر بين الصفوف وسار حتى اقترب مني ورأيت وجهه ضخمًا جدًا، وكلما اقترب مني زاد ضخامة كأنه مارد، ثم قبض على كتفي بيده فجأة، **وقال بصوت عميق:** أحذركم.

الحُلْم الغريب

فقمت من نومي فزعًا، يتصبب العرق على وجهي، منذ زمن ولم أحلم بمثل هذه الكوابيس، منذ زواجي من **خديجة** وحياتي هادئة مستقرة، والجامعة؟ لقد تخرجت منها منذ زمن بعيد فلقد تخطيت الأربعين عامًا، ياله من كابوس فظيع!

حاولت النوم مرة أخرى، لم أستطع، نظرت في المنبه بجانبي فرأيت الساعة العاشرة صباحًا، فقمت من السرير لأصلي ركعتي الضحى، ثم دخلت الشرفة، وأخذت نفسًا عميقًا، فأنعشني هواء البحر؛ فقد كان بيتي قريبًا من شاطئ ميامي، وحاولت نسيان الكابوس الذي رأيته بلا فائدة.

لقد تذكرت الأيام السابقة التي كانت تتحقق فيها كل الكوابيس المرعبة، نظرت من الشرفة فرأيت **الحاجة علية** في الحديقة تشرب كوبًا من الشاي، فلما رأتني أسرعت لتجهز لي فنجان القهوة كالمعتاد والجرائد، كان الجو معتدلًا كالعادة في شهر مايو، والعصافير تنتقل من غصن إلى غصن من أغصان الشجرة الوارفة التي تلامس جدار الشرفة، ثم أخذت الجرائد لأتصفحها، الأخبار كالعادة ليس فيها جديد: حروب... قتل... اتهامات... شجب... كوارث، تصفحت صفحة الحوادث كالمعتاد بدون اهتمام بالتفاصيل، حتى رأيت صورة **سمير** في صفحة الحوادث. فوقع فنجان القهوة من يدي،

الحُلْم الغريب

في البداية ظننت الصورة لشخص يشبهه، تأملتها **فقلت:** يخلق من الشبه أربعين، قرأت ما تحت الصورة فتأكدت أنه هو، لقد قتل أمه، ياللبشاعة!، قتل أمه ولم يكتف بذلك ولكنه اعترف أيضًا، دارت الدنيا بي، سمير قتل أمه؟ من المؤكد أنه سيشنق بسببي، فأنا القاتل الأساسي، أنا السبب، أنا المحرض، أين سأذهب من حساب الله؟ ياله من يوم أسود يوم ذهبت إلى المسجد يوم الأحد.

استيقظت خديجة في ذلك اليوم في وقتها المعتاد عند الفجر، وصلينا معًا الفجر في المسجد، كانت تصر على ذلك، ثم نسير على شاطئ البحر بعد الانتهاء من الأذكار قرابة الساعة، ثم نعود إلى المنزل للإفطار، وكنت أنام مرة أخرى حتى صلاة الظهر، أما خديجة فلم تكن تنام إلا بعد صلاة العشاء، خرجت خديجة ذلك اليوم إلى العمل، حيث كانت مرتبطة بموعد مع فوج سياحي من ألمانيا، فهي مرشدة سياحية ألمانية الأصل وأسلمت، وهي أحلى شيء في حياتي، لم تكن تخرج للعمل كل يوم وإنما بحسب طلب الشركة السياحية التي تعمل فيها، وبعدما خرجت نمت مرة أخرى لأنني أذهب إلى متجري في المنشية في وقت متأخر، وأعتمد على **صبحي** في الذهاب قبلي وفتح المتجر.

الحُلْم الغريب

اتصلت بصبحي وأوصيته على المتجر لأنني لن أذهب ذلك اليوم، كنت أثق فيه فهو أمين ونشيط ويعتمد عليه، كان في العقد الخامس من عمره، لم يكن يستقر في أي عمل يعمله كما أخبرني فكان يتنقل من مكان إلى آخر، حتى تزوج وأنجب بنتين، فاستقر في العمل عندي ولم يفكر في تغييره، بعدما توسعت في التجارة واشتريت محلًا كبيرًا عهدت إليه بالمسئولية، كان قد مر علي عمال عديدون ولكنه كان أفضلهم، واخترت في الدور الثاني من المحل أيضًا رجلًا أمينًا **عم فتحي** كان على المعاش في السبعين من عمره ويعمل ليساعد ابنه المتزوج ذا الراتب البسيط، وكان يعمل تحت إشرافهم أربع فتيات.

جلست واجمًا لا أعرف ماذا أفعل، هل أذهب إلى المحكمة وأخبرهم بالحقيقة؟ هل أدافع عنه وأوكل محاميًا؟ لكنه اعترف، ربما باعترافي يخففون الحكم عليه من الإعدام إلى المؤبد، ولكن هل الحكم بالمؤبد أرحم عليه من الإعدام؟

سمعت صوت خطوات خديجة الرشيقة على السلم، كانت تجري وهي تصعد السلم كعادتها، لم أشعر بمرور الوقت، لما رأتني تعجبت؛ فمن عادتي أن أكون في هذا الوقت من بعد الظهيرة في المتجر، فأخبرتها أنني حزين من أجل صديق لي ماتت أمه، لم أقل

لها الحقيقة، ماذا أقول لها؟ أأقول لها أنني قاتل وغبي؟ منذ ثمانية سنوات وأنا كلما أتمنى شيئًا يتحقق، لقد تمنيت في هذه اللحظة لو أن خديجة غابت عن البيت بعض الوقت، فرن التليفون وكان أبو خديجة، وكأن السماء استجابت لأمنيتي فلقد أخبرها أن أمها مريضة ودخلت المستشفى، فوعدته بالمجيء، فنشطتُ في الحال وأبديتُ الهمة للمساعدة، واتصلت بشركة الطيران لأحجز لها؛ فتعجبت خديجة من أمري كأنني فرح لرحيلها، كنت أود الانفراد مع نفسي بعض الوقت، وأبحث عن حل لهذه المشكلة العويصة.

عندما رأيتها تنظر إلي في دهشة قلت لها بسرعة لأداري خجلي: طمأنيني على والدتك بمجرد الوصول.

سمعت صوت ابني الوحيد **عمر** وهو ينادي من الحديقة:

النجدة يا أبي، لقد خرج العصفور المريض من القفص.

فنزلت السلم وأنا لازلت أفكر في سمير، فرأيت العصفور يطير حول القفص بضعف، فأمسكته بسهولة، وبمجرد ما التفت وأعطيته ظهري رأيت عمر يشير إليه مرة أخرى، **ويقول لي:**

أبي، إنه يحاول الخروج مرة أخرى.

كان يحاول الخروج من فتحات القفص، برغم ضيقها كان لا يمل ولا يعبأ بالاختناق الذي تعرض له، وظل يجاهد ويجاهد حتى خرج من القفص، فحملته مرة ثانية ووضعته في القفص. وأوصيت عمر بمتابعته كلما خرج فليدخله حتى يكف، ولكنه لم يكن ييأس إلا ليرتاح فقط ثم يعاود الخروج.

فوضعته فوق القفص لعله يرتاح بهذا الوضع، وتركت باب القفص مفتوحًا ليتمكن من الدخول للطعام والشراب، وأوصيت عمر أن يضعه فوق القفص كلما طار حتى يتعود على مكانه الجديد، فهو فيما يبدو يحب الحرية، برغم مرضه وضعفه لا يحب القيود، مع أن كل عصافير الزينة التي ربيتها من قبل لم تكن تخرج من القفص، وأنا الذي كنت أخرجها لتطير في الحديقة بعد أن تحفظ مكان الشراب والطعام، فهي عصافير استرالية ضعيفة ولكنها جميلة الشكل.

ركبت السيارة أنا وعمر وخديجة لتوصيلها إلى المطار، في الطريق حاولت أن أبدو طبيعيًا أمام خديجة حتى لا تشك في شيء، كان كل من يرانا معًا يظننا أجانب للون بشرتي الأبيض أيضًا، ولكنها كانت تلفت الأنظار في أول إسلامها بلباسها الذي تفضله، كانت

تلبس عمامة مثل عمامة علاء الدين حيث كانت مغرمة بقصص ألف ليلة وليلة والشخصيات الشرقية، وكانت ترتدي السروال الواسع أيضًا الذي يلبسه علاء الدين، ما كان مخالفًا فقط هو الحذاء الرياضي الحديث، فكان شكلها عجيبًا، ولكنني تركت لها حرية اختيار الملبس حتى غيرت هذا الشكل إلى العباءات العربية.

سلمت على خديجة قبل الدخول في صالة المطار، وسلم عليها عمر وقبل وجنتيها وقبل يديها كما عودته على ذلك.

في طريق العودة تركت نفسي لطبيعتها، وتركت الاتهامات تنهشني والاحساس بالذنب يقتلني، فشرد فكري طوال الطريق، وكدت أن أصطدم ببعض السيارات المارة عدة مرات، وكنت أنتبه من شرودي على صوت سباب السائقين: الله يلعن من أعطاكم الرخصة.... المجانين الآن تقود السيارات...... كل من هب ودب يأخذ رخصة القيادة بعشرة جنيهات.....إلخ.

علا رنين الهاتف فسمعت صوت صبحي يخبرني بأن هناك عجزًا في بعض الملابس الفاخرة، وكان يشك في **(سها)** إحدى الفتيات، ولكنه لم يكن متأكدًا، فطلبت منه وضع كاميرات للمراقبة، وليصبر حتى يرى السارقة الحقيقية، كنت مشغولًا بسمير ولن أذهب إلى المتجر حتى أنتهي من موضوعه.

الحُلْم الغريب

اتصلت **بالحاج ثروت** بمجرد رحيل خديجة، ودعوته لزيارتي في بيتي، لم أرد مقابلته في المسجد، لأنني في المسجد لن أستطيع الانفراد معه، فحدد لي موعدًا بعد صلاة الظهر في اليوم التالي، كان الحاج ثروت على المعاش، وفي العقد السابع من عمره، ولم يكن يترك فرضًا في المسجد، و كان يأتي لحفظ القرآن في مجلسي يوم الأحد، وهو الذي عرفني على سمير لأنه جاره، وأوصاني عليه، **فقال لي:** إنه شاب صغير ويتيم، ويرغب في الانتحار لدخوله الجيش، **وقال لي:** إن أمه متعبة بسببه وهو لا يراعي ذلك، إنها منهارة بسببه فهو يسبب لها الرعب بهياجه الدائم، نصحته بأن يتماسك أمامها ويخفي قلقه رحمة بها بلا فائدة.

فصاحبته وحاولت إقناعه بأن يحتسب الأجر عند الله ويعتبره جهادًا في سبيل الله، فأرعد وأزبد، **وقال لي:**

كيف تعتبر الذل والشتائم وخدمة الضباط جهادًا في سبيل الله؟

ثم قال لي:

أفكر في قتل أحد الضباط.

وثار ونسي أنه في المسجد، فهدأته، ولكنه كان كالعاصفة لا يهدأ إلا ليثور مرة أخرى، فلقد تخرج من الجامعة ثم فوجيء بصدمة المعاملة السيئة في الجيش، كان يظن أنه سيعامل معاملة

البهوات، واتهم كل من يقبل هذا الذل بأنه سلبي وليس رجلًا، **فقلت له مازحًا:**

ليتني دخلت التجنيد، فلقد أخذت تأجيلًا ثم إعفاء.

فثار وقال لي:

لذلك لا تشعر بي، ما أسهل النصح والوعظ!

فأقنعته بحفظ القرآن معنا لأنه شفاء لما في الصدور، فقال لي نفس المقولة التي تعودت سماعها ممن لم يجرب متعة حفظ القرآن:

وهل الحفظ فرض؟ أهم شيء العمل به وقراءته.

فأقنعته أن الحفظ مجرد وسيلة فقط تجعلك تقرأه كثيرًا، وتداوم على تلاوته لتدخل في زمرة الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، وأقنعته بفوائد الصحبة في الله التي تجمعنا بالصالحين والائتناس بهم؛ فداوم على حضور المجلس وهو مستسلم، لم يبد على وجهه الرضا، ولكنه أحب الجلوس معنا بعد ذلك لوجود بعض الشباب من سنه، ثم اتصلت بي أمه وشكرتني على انصلاح حال ابنها، ولكن رغم تحسن حاله نسبيًا ظلت الكآبة تعاوده بين الحين والآخر، كان يعد أيامه في الجيش، ويشعر بأن الأيام لا تمر.. كان يعدها بالساعة والدقيقة.

عندما انقطعت عن حلقات المسجد لم تنقطع أخبار مرتادي المسجد عني؛ فقد كنت أقابلهم في أوقات الصلاة فأصلي معهم، وكنت أسأل عن أحوالهم، وكانوا أحيانًا يأتون إلي في المتجر لشراء احتياجاتهم من ملابس، وبعدما توسعت في التجارة زادت مساعدتي لهم، فقد كان المتجر كبيرًا مكونًا من دورين أبيع فيه الملابس الجاهزة لكل الأعمار، وكنت أخدم معارفي القدامى بالبيع لهم بالتقسيط.

انتظرت الحاج ثروت لأعلم منه تفاصيل الحادثة وأستشيره فيما يجب عمله لمساعدة سمير، رن جرس الباب ثم سمعت نباح الكلب عنتر كعادته كلما دق جرس الباب، فنزلت إلى أسفل لأستقبل الحاج ثروت، فرأيت **الشيخ عطية** الذي يحفّظ عمر القرآن، فطلبت منه الدخول إلى الحجرة المخصصة له، وكانت الحجرة الوحيدة في الدور الأسفل المنعزلة، ولها باب مستقل، أما بقية الدور كله فهو عبارة عن حجرات واسعة مفتوحة كل منها على الآخر، بها ثلاثة صالونات وسفرة كبيرة ومطبخ كبير ودورتان للمياه، كانت الفيلا كبيرة وأنيقة، حيث اختارت خديجة تصميماتها، واختارت أثاثها بذوق راق؛ مزيج من الشرق والغرب، وكانت مغرمة بالتحف ذات الطابع الفرعوني والإسلامي والأوروبي، وكانت الحديقة واسعة

ومنسقة بفضل توجيهاتها ورعايتها دائمًا، وكان الغالب على ألوان الستائر والمفروشات اللون البني والبيج بدرجاته، وكانت أبواب الدور الأسفل جميعًا تفتح على الحديقة، وإحدى الأبواب يفتح على حوض سباحة كبير، وملحق بالحديقة صالة واسعة للألعاب.

رأيت الحاج ثروت مقبلًا وراء الشيخ عطية مباشرة قبل أن يغلق إسماعيل الباب، فأسرعت لاستقباله، وأسرع عمر ليستقبل الشيخ عطية فسلم عليه وقبل يده، وقبل الدخول في الحجرة المنعزلة التي كانت مخصصة للحفظ خلع الشيخ عطية حذاءه فحمله له عمر ووضعه في مدخل الحجرة، كان الشيخ عطية يحبني ويحب عمر، في البداية عندما طلبت منه المجيء لتحفيظ ابني لم يكن متحمسًا، ولم يأت إلا بعد اتصالي به أكثر من مرة، بعد ذلك اعتذر لي، **وقال لي:**

كنت أظنه مثل بعض الأولاد المدللين، فلا أنسى أبدًا تقديم أحدهم لي كوبًا من الشاي عليه ملح بدلًا من السكر، وآخر رش على عمامتي بعض الرمل، وعندما وضعتها فوق رأسي تساقط الرمل على وجهي، ثم قص علي ماكان يفعله شيخه به فلقد كان يضربه بالعصا وهو شاب كبير عندما كان يتعلم القراءات السبع.

الحُلْم الغريب

أشرت للحاج ثروت بالدخول في أحد الصالونات، عندما رأى الحاج ثروت جمال الفيلا انبهر قليلًا، ولكنه تمالك نفسه **ثم قال:**

ما شاء الله، بارك الله لك يا بني، وأنعم عليك.

جلس الحاج ثروت في الصالون، لاحظت أنه غير مرتاح في جلسته، فاقترحت عليه الجلوس في حجرة المسجد، فضحك وسألني:

ما حجرة المسجد هذه؟ لم أسمع عنها من قبل.

فقلت له:

إنها حجرة خالية أفرشها بسجادة وبها مكتبة صغيرة فيها كتب دينية، أحب الصلاة فيها والخلوة وخاصة في رمضان، وهي تذكرني بالمسجد.

فصعدنا إلى الطابق الثاني وكان فيه حجرة نومي، واختارت خديجة كل شيء فيها باللون الروز الذي كانت تعشقه، حتى الستائر، وحجرة عمر ابني كانت خليطًا من اللون الأخضر بدرجاته، وحجرة المسجد التي فرشتها مثل أي مسجد، النوافذ على طراز نوافذ المساجد، والسجاد الأخضر أيضًا بنفس نقوش سجاد المساجد، ومطبخ صغير ودورة مياه، دخلنا حجرة المسجد، وبالفعل ظهر على وجه الحاج ثروت علامات الارتياح، فقد كان

يحب الجلوس في المسجد، ومن كثرة جلوسه فيه يبدو أنه أحب كل ما يذكره به.

مد الحاج ثروت ساقيه، وأسند ظهره على إحدى الوسائد المنتشرة في الحجرة، وظهر على وجهه علامات الراحة، دق الباب، ثم دخلت الحاجة علية بالشاي وبعض الحلوى الشرقية ثم انصرفت، ثم تحدثت مع الحاج ثروت فسألته عن حاله وحال بناته الثلاثة، فقد كان دائمًا فخورًا بهن وبأخلاقهن، فهن يرتدين النقاب ويحافظن على فروض الدين، فوجئت به يتجهم وجهه، ويشيح بيديه، **ويقول لي:** سامحهن الله لقد فضحنني، لا تذكرني بهن، كيف حالك أنت؟

ثم رشف الشاي بتلذذ ثم سألني:

من أين أتيت بهذا الشاي يا إبراهيم يا بني؟

فأخبرته:

من ألمانيا.

وقمت من فوري، وذهبت إلى المطبخ، وعدت بعلبة منه، وأعطيته إياه، فأخذها بعد إلحاح وبعد ما أقسمت عليه، فشكرني. ثم تكلمنا عن سمير وهو ما أردت الكلام عنه، أردت أن أعرف

كل شيء عنه، فقال لي إنه قتل أمه واعترف بذلك ورفض أن يدافع عنه أحد.

سألته عن أخيه شادي، **فقال لي:**

لقد تبرأ منه، ورفض زيارته. ولقد حاولت أن أوكل محاميًا للدفاع عنه ولكن سمير رفض بشدة.

كان الحاج ثروت من أصحاب المعاشات الذين يرتادون المسجد دائمًا، فيصلي كل الصلوات، ويقرأ ويحفظ القرآن، وكان دائمًا يأتي إلى المسجد وفي جيبه أرباع جنيهات، كان يراني أعطي للسائلين عشر جنيهات أو أكثر إذا كان شكلهم كئيبًا، أو لا أعطيهم شيئًا إذا لم أطمئن لوجوههم، وأردهم خائبين، **فكان يقول لي:** أنا لا أرد سائلًا، ربع الجنيه من الممكن أن يشتري به خمسة أرغفة إن كان هو فقيرًا حقًا، وهذا خير من إحراجه ورده، وكان يغضب عندما يتأخر أحيانًا دقائق قليلة فيؤذن غيره للصلاة بدلًا منه، فقد كان **الشيخ سيد** إمام المسجد الأصلي أحيانًا كثيرة يترك المسجد أمانة في يد بعض المعروفين بالصلاح والتقوى لانشغاله في العمل خارج المسجد، فبعضهم يؤذن وبعضهم يصلي بالناس، لأنه كان يذهب إلى المنازل ليحفظ الناس القرآن بالأجر؛ وذلك لضآلة مرتبه.

أتت الحاجة علية لتخبرنا بأن الغداء جاهز، فنزلنا إلى حجرة الطعام وكان الشيخ عطية وعمر ينتظرانا، فتغدينا معًا، لم يكن بي شهية للطعام ولكنني تظاهرت بالأكل ليأكلوا، ثم شربنا الشاي في الحديقة. ولولا الحدث الأليم لاستمتعت بهذه الصحبة الطيبة في ذلك اليوم.

قبل انصراف الحاج ثروت الذي جلس معي قرابة الساعتين دق الباب ثم دخل ابني عمر كان يشبه أمه تمامًا فهو شديد البياض وشعره أحمر وعيناه لونهما أزرق، أما تقاسيم أنفه وفمه فمثلي تمامًا، فأنفه مستقيم يميل إلى الطول قليلًا مثل اليونانيين، وفمه معتدل، كان عمر في السادسة من عمره ترعاه الحاجة علية، وهي امرأة طيبة، لم أود أن يسافر مع أمه حتى لا يشغلها وتستطيع أن تبيت مع أمها إذا أرادت في المستشفى، سلم عمر على الضيف ثم سلم علي، وقبل يدي، واستأذنني في الذهاب إلى صديقه **يوسف** مع الحاجة علية، فوافقت وانصرف، ورأيت الحاج ثروت يضحك ملء فمه **وهو يقول:**

ما شاء الله، هذه الأشياء انقرضت يا إبراهيم، أبناء هذه الأيام لا يحترمون آباءهم، ويردون عليهم الكلام كلمة بكلمة، ويشيحون

بأيديهم، ويعيبون عليهم، مثلًا يا سيدي حفيدي في الحضانة يقول لوالده: لا تأت إلي في المدرسة بسيارتك لأنني أخجل من أصحابي بسببها، فشكلها قديم، هذا أقل شيء.

انصرف الحاج ثروت وجلست في حجرة المسجد، وكنت قد نويت المبيت فيها الليلة فذهبت إلى حجرتي وأحضرت غطاء، وأنا عائد إلى حجرة المسجد سمعت صوت عمر فدخلت حجرته فرأيته، فسألت الحاجة علية:

ما الأخبار؟ لماذا عاد بسرعة؟

فضحكت، وقالت:

عقل أطفال؛ لقد تشاجرا.

وقبل أن تنهي كلامها سمعنا جرس الباب ونباح الكلب وصوت **إسماعيل الخفير ينادي:**

عمر، يوسف يريدك.

فضحكنا وأوصيتها بالأولاد خيرًا، ثم سألت عمر عن العصفور فأخبرني أنه جرح اليوم من نقر عصفور آخر له فوضعه

داخل القفص، كانت الحاجة علية أرملة في العقد السادس من عمرها، نحيفة ونشيطة، وسمراء، وكانت معتدلة الطول مصرية الملامح، وكانت ترعى عمر وتبيت معه ومسئولة عن المطبخ فقط، أما نظافة البيت فكان مسئولية شغالتين أخرتين تأتيان يومًا في الأسبوع، وكان للحاجة علية ابنة واحدة متزوجة في القاهرة، عندما تأتي ابنتها لزيارتها تعتذر عن المجيء، الشغالات الآن يتدللن على الناس فهن مطلوبات بسبب عمل النساء، فأصبح الطلب عليهن شديد، كنت أشرف على الشغالات في أول عملهن بسبب جهل خديجة باللغة العربية، لم تكن الحاجة علية الأولى التي عملت لدينا فلقد سبقتها عاملتان، الأولى كانت كلما أتت تطلب بعض المال بحجة ابنها المريض، وعندما سألت عنها اكتشفت كذبها، أما الثانية فكانت تنظر لكل شيء بحقد وكثيرًا ما كانت تكسر الأشياء أثناء التنظيف، فاستغنيت عنها.

نزلت إلى الحديقة لألقي نظرة على العصفور فوجدته ينزف من رأسه، يبدو أن أحد العصافير نقره، كان الجرح عميقًا، وكان ينزف بغزارة، شعرت بتأنيب الضمير، فلقد أهملت في حقه، وتكاسلت بأن أشتري له قفصًا ضيق الثقوب، شعرت بالحزن والألم لأنني السبب، فأحضرت قطعة من القطن وكتمت الجرح بعض الوقت حتى كف

عن النزف ثم أغلقت عليه القفص، لم يكن قادرًا على الخروج من الضعف، ثم طلبت من الحاجة علية شراء قفص له ثقوبه أضيق.

نمت في حجرة المسجد هذه الليلة، واستيقظت لصلاة الفجر، عدت إلى البيت ولم أمكث لقراءة الأذكار في المسجد كالعادة، فالمسجد الآن يذكرني بألمي، فتحت النوافذ كلها لتجديد هواء الغرفة، ثم نمت وأنا أتلو أذكار الصباح ونسيت النوافذ مفتوحة، فاستيقظت على صوت رفرفة أجنحة تحوم حول رأسي، ظننت أنني أحلم، ففتحت عيني ببطء لأرى بعض العصافير تطير حول رأسي، ماأحلى هذا الصوت، صوت الحرية، لقد دخلت بعض عصافير الزينة التي أربيها في الحديقة، لم أكن أحبسها في أقفاص كما يفعل الناس، وإنما كنت أترك لها القفص مفتوحًا، فتطير بعض الوقت ثم تعود إلى أعشاشها لتأكل وتشرب،إلا عصفورًا واحدًا حبسته خوفًا عليه لأنه مريض، وكنت أحرص على إعطائه الدواء كما أوصى به الطبيب في الطعام، ثم صمم على الخروج من القفص، وأصبح ينام فوقه دائمًا وفرض إرادته علينا حتى حدثت له هذه الحادثة الأليمة.

الحُلْم الغريب

قمت لأصلي الضحى كالعادة وتناولت كوبًا من الشاي بعد أن فقدت شهيتي، ثم استلقيت على الأرض، ونظرت إلى سقف الحجرة، واستعدت حياتي كلها منذ الطفولة البائسة، كانت طفولتي بائسة بسبب أمي، فهي كانت غريبة الأطوار، يعمل أبي ويكدح طوال الليل والنهار، وهي توزع الطعام على الفقراء والأقارب والجيران فيضطر أبي للاقتراض، ويثور ويتشاجر معها، فتعود مرة أخرى وتعطي طعامنا للجيران وللأقارب، فكلما أتت إلينا جارة وأعجبها طعام قدمناه لها كانت أمي تقسم عليها أن تأخذه معها، وكانت تربي الدجاج والبط وتوزعه أيضًا، كنت يوميًا أقوم من النوم في الصباح الباكر فزعًا على صوت أبي العالي وهو ثائر وأمي تبكي بكاء حارًا، وأحيانًا تؤجَل المشاجرة إلى الليل، وعندما تؤجَل المشاجرة إلى الليل كنت أجلس قلقًا طوال النهار أنتظر المشاجرة وكأنها واجب يومي لابد من إنجازه، وكنت أفرح عندما تنتهي المشاجرة صباحًا، فوقوع البلاء ولا انتظاره، وبسبب القيام من النوم فزعًا كنت أحيانًا أبقى فزعًا هكذا بعض الوقت، وظللت حتى الآن وأنا كبير عندما أسمع شجارًا في الطريق أشعر بفزعي وأنا طفل صغير يعاودني، وتبكي أمي على حظها النحس بعد كل مشاجرة بسبب زواجها من رجل يثور لأتفه الأسباب في نظرها، فذات مرة بحث أبي عن بدلته للذهاب إلى

حفل عرس أحد الأقارب فلم يجدها، وبسؤال أمي تلعثمت فعرف أنها أعطتها لقريب فقير، وعندما ثار وغضب بكت، **فقلت لها:**

أنت مخطئة يا أمي.

فبكت أكثر، **وقالت لي:**

منك لله أنت أيضًا، فأنت مثل أبيك ليس عندك رحمة.

ومرة أخرى تصدقت بحذائه، وأخرى بقمصانه، ولأن أمي وأبي كانا أقارب، فكان الأقارب يتدخلون للصلح بينهما، ولكن لم تتغير أمي أبدًا، ويبدو أنها كانت مريضة بوسواس قهري جعلها لا تتخلى عن العطاء حتى ولو جعلتني وأنا أبلغ من العمر سبعة أعوام أعمل في محل حلاق، ومهما ثار أبي لم تكف عن عادتها، كانت تتصرف أحيانًا كثيرة كطفلة في السادسة من عمرها؛ وتصدق كل كلمة تقال لها، فلقد أقنعتها إحدى الجارات والتي كان ابنها في مثل عمري ولكنني كنت متفوقًا عليه في الدراسة فقد كان في نفس فصلي، وكنت دائمًا الأول على الفصل، وأحصل على جوائز تشجيعية، هذه الجارة أقنعت أمي بطريقة شيطانية أن أعمل في الصيف حتى أعتمد على نفسي، وأنفق على نفسي حتى لا يثور أبي عليها كل وقت، وكان الجيران يسمعون صوته الثائر، والغريب أن هذه السيدة لم تجعل ابنها

يعمل، **وقالت لأمي:** ابني ضعيف؛ لقد ذهب ليعمل ولكنه أغمي عليه، وأتى به صاحب المحل محمولًا على الأعناق.

ثم قالت بطريقة خبيثة:

حظه سيء وليس كغيره قادر على العمل.

وظهر حقدها بعد حصولي في الإعدادية على مجموع يؤهلني للثانوية العامة وابنها لم يحصل على المجموع الكافي، فقاطعت أمي تمامًا وكلما رأتني أدارت وجهها وأغلقت باب بيتها بعنف، وكانت تسكن في الطابق السابق لنا.

قطع حبل أفكاري رنين التليفون، كان صبحي يطمئنني على المحل وأخبرني بأنه سيمر علي ليسلمني الإيراد، سألته عن تركيب الكاميرات، **فقال لي:** لقد اتصل بشركة مسئولة عن ذلك وسوف تركبها غدًا، تذكرت **سلوى** رغمًا عني، كانت أول عاملة عندي، عندما كتبت على المحل إعلانًا بطلب عاملة آنسة، جاءتني سلوى، كانت متزنة، هادئة، وراشدة، وبهرني أيضًا مستواها الاجتماعي، ولكنها كانت مريضة بالسرقة، عندما رأيتها أول مرة وتحدثت معي بلكنة راقية، تعجبت ما الذي جعلها تفكر في العمل كبائعة، سألتها

عن بياناتها، فعرفت سنها كانت في أول العقد الخامس من عمرها، حاصلة على مؤهل جامعي، وتسكن في حي راق، والدها كان شخصية كبيرة ولكنه متوفي، أمها كانت محاسبة في بلد عربي ولكنها أحيلت على المعاش، لها أخت دكتورة ومتزوجة من سفير، كانت ترتدي ملابس أنيقة وتتكلم بين الحين والآخر بكلمات باللغة الفرنسية، ولكن مع كل هذا لم تكن بالجميلة، ولم تكن متزوجة، لعل لذلك السبب مرضت نفسيًا، ووجدت لها في السرقة متنفسًا، حاولت معها أن تكف عن هذه العادة بلا فائدة، مع أنها كانت تسرق الشيء ثم تعيده بعدها بأيام وربما بشهر، والغريب أنني لم أشك فيها، كنت أشك في الزبائن، وأقول ربما سرقت إحدى المشتريات الثوب الناقص، والغريب أنها هي التي اعترفت على نفسها **بالسرقة، قالت لي أول مرة:**

لقد أخذت هذا الثوب لا أعرف لماذا.

كانت شخصية غريبة، اتصلت بوالدتها وطلبت منها أن تعالجها، وأخبرتها برغبتي في الاستغناء عنها، ورفقًا بظروف مرضها لم أشأ أن أحرجها أو أصدمها فهي لم تكن لديها حياة، ولكن والدتها طلبت مني أن أترك لها مهلة من الوقت، ووعدتني بأنها سترد لي راتبها الشهري بغير علم ابنتها، فرفضت ذلك.

الحُلْم الغريب

عندما اعترفت سلوى لي بالسرقة أحسست أنها تتقرب مني، تريد محادثتي لترتاح من همومها، ولكنني كنت لا أزال أحب **سهام** في هذه الفترة، وكنت مكتئبًا بسبب ما حدث منها، ولم أكن راغبًا في الزواج من أخرى، فصددتها من أول يوم حتى لا تحلم بشيء لن يتحقق، وأخبرتها أنني مرتبط، كنت أود التخلص منها ولا أعرف كيف، اتصلت بأمها وسألتها عن وعدها لي بأن تجعلها لا تأتي إلى العمل، فاعتذرت لي حتى لا تنتكس حالتها لأن الطبيب نصحها بألا تترك العمل حتى لا يرهقها الفراغ ويسبب لها متاعب إضافية، ثم وجدتها تحولت إلى شخصية أخرى، فكانت تأتي إلى المحل بملابس خليعة فنصحتها ألا ترتديها، نصحتها بنية أنها مثل أختي؛ ولكنها كما فهمت بعد ذلك ظنت أنني أحبها وأغار عليها، ثم تطورت الأمور بسرعة، فقد اتصلت بي أمها وطلبت مني زيارتها لأمر هام، قالت لي متوسلة إنها تحتاج إلى نصيحتي فأنا طيب القلب والأخلاق وأخذت تمدح في بطريقة لم أستطع رفض طلبها، توجهت إلى بيتها الكائن في جليم، **وسألت نفسي وأنا في الطريق إليها:** لماذا أنا خائف هكذا؟ وعندما دخلت بيتهم رغمًا عني شعرت بالرهبة من مدى الثراء الواضح على الشقة، من جمال الأثاث وفخامته ومساحة البيت الشاسعة كما يبدو من الصالة، والتحف الغالية والمصابيح والثريات والستائر الناعمة، كانت قاعة الاستقبال كبيرة.

الحُلْم الغريب

رحبت بي والدة سلوى، وهي امرأة تخطت السبعين من عمرها أنيقة كانت يدها مرصعة بخواتم تبهر النظر، أخذت تكلمني عن عائلتها وعراقة عائلتهم، فأيقنت أن ابنتها مريضة حقًا ففتاة بهذه العائلة تفكر في العمل كبائعة أمر غير معقول، ثم أقسمت لي أن ابنتها تقدم لها عشرون عريسًا وهي رفضتهم جميعهم لأنهم ليسوا على قدر المستوى المطلوب، وهنا مللت حديثها عندما أطالت في مدح ابنتها، فهممت بالانصراف، فألحت علي بالعشاء معها فرفضت بشدة وأخبرتها أنني لا أتعشى.

فسألتها عن سبب استدعائي، **فقالت لي**: إنها كبرت في السن وتخشى الموت وتريد الاطمئنان على ابنتها معي، كانت طبعًا مسئولية لست مستعدًا لها، ولم تكتف بهذا بل أضافت أنها تريدني زوجًا لها، **وقالت لي**: أنت مناسب لها يا بني، فكما قالت لي سلوى فعمرك لا يقل عن ستين سنة، مع أن شكلك أصغر من سنك فتبدو في الخمسين، ونصحتني ألا أتأخر عن الزواج أكثر من ذلك، صعقت وقلت في نفسي إنها حقًا عائلة مجنونة، فشكلي بالفعل كبير بسبب الصلع الذي أصابني من الهم، ولكن ليس لهذه الدرجة، فسني لم يتجاوز الثامنة والعشرين.

أخبرتها أنني مرتبط، **فقالت لي:** الرجل له أربعة، ولن تكلفني شيئًا، فلم أنتظر أكثر من ذلك، فأغلقت المحل وأخبرتها بأنني سأترك البلد، وغيرت رقم تليفوني المحمول.

بعد أسبوع نويت العودة إلى المحل، فلقد ظننت أن الأمور قد هدأت، وقبل ذهابي إلى المحل رن جرس الهاتف، فأتاني صوت **وجدي** عبر الهاتف، كان عاملًا في المحل المجاور لمحلي، وكان حاصلًا على مؤهل متوسط، وكنت أعطف عليه وأعطيه بعض المال بين الحين والآخر، فأخبرني أن سلوى تأتي كل يوم وتسأل عني، ثم حذرني بعد ذلك من فتح المحل مرة أخرى، لقد بدأت تفضحني وتقول أنني كنت على علاقة معها وأنني كنت أغار عليها وأحبها، وهذا الكلام كان من محض تخيلاتها، فلقد كنت لا أزال أحب سهام ولم أفكر في غيرها، **سألت وجدي:**

وهل تصدق هذا الكلام يا وجدي؟

فقال لي:

بالطبع لا يا بيه.

لم يكن أمامه إلا هذا الرد فأنا أعطف عليه، فماذا سيقول؟

فوجدت ألا مفر من تأجير محلًا آخر في مكان آخر، وفوجئت وأنا أجهز المحل الجديد بها تحدثني في الهاتف، واتهمتني هي وأمها بأنني غررت بها، لم أرد على سلوى فهي مريضة ولكنني لم أصمت بعد كلام أمها، وقلت لها أنها تعلم جيدًا أن ابنتها مريضة وتتخيل، ومن الأفضل لها أن تكف عن الاتصال بي، ولتخبرها أنني مت، أو لتقل لها أي شيء، لأنني سأضطر لو اتصلت مرة ثانية أن أواجهها بأنها مريضة، فكفت عني.

كان يوم نقل البضائع للمحل الجديد يومًا سيئًا، فالرياح شديدة ولم يكف المطر، فاضطررت لتأجيل النقل لليوم التالي، وكان الجو قد هدأ قليلًا، وكف المطر ولكن الرياح الباردة لم تخف وطأتها فقد كنا في شهر يناير، وصلت إلى المحل رأيت جيراني أصحاب المحلات المجاورة، فتقدمت لأحييهم ووجهي متهللًا بلقياهم، فلقد كان بيني وبينهم كلام وطالما شربنا الشاي معًا، وأحيانًا كنا نجلس على المقهى القريب منا بعد العمل لنتبادل الأحاديث، وقد طال غيابي لأسبوعين، ففوجئت بهم يتحاشون النظر في وجهي، أما **الحاج جمعة** الذي طالما أثنى علي وخاصة بعدما رفضت تناول الحشيش معهم على المقهى وأيضًا البيرة التي أحيانًا كانوا يشربونها،

وصممت على رفضي لها حتى بعد ما أقسم أحدهم أنها حلال لا تسكر، حتى هو تنكر لي وكأنه شاهد كلبًا أجرب، فسلمت على استحياء وابتعدت محاولًا نقل البضائع بسرعة، يبدو أنهم في النهاية صدقوها ولم يصدقوني، وتناهى إلى سمعي وأنا أركب سيارة النقل قول عم جمعة صاحب المحل المجاور لي بسخرية:

يبدو عليه البراءة، كأنه لم يفعل شيئًا.

وآخر يقول:

لا يوجد دخان بدون نار.

وآخر رد:

انعدم الضمير.

لم أرد على أحد منهم، ومن وقتها وأنا لا أتعامل مع بنات كبيرة في السن، فالعاملة آخرها خمسة وعشرون عامًا، وأرفض تشغيل من بلغت السادسة والعشرين ولم تتزوج، فلقد أصبت بعقدة، وتعمدت الحديث بغلظة وبطريقة رسمية، ووضعت حدًا بيني وبين أية عاملة، وكانت هذه أول تجربة لي في العمل لا أنساها أبدًا.

كانت هذه الواقعة سببًا في اقترابي من **فاطمة**، فنويت أن أجلس معها أحادثها يوميًا مهما كانت مشاغلي، وإذا لم أقابلها في البيت كنت أحرص على الكلام معها هاتفيًا، هذا غير دعوتي لها كل أسبوع خارج البيت إما نسير على الشاطئ أو نتناول الطعام في أحد المطاعم أو نذهب إلى نادي سموحة، وأوصيت عليها أمي حتى لا تحتاج إلى الحديث مع أحد، وأحيانًا كانت أمي تصحبنا في خروجنا.

كانت فاطمة تشترك معي في حب البحر وخاصة في الربيع والشتاء، ففي الشتاء كنا نرتدي المعاطف الثقيلة ونسير على شاطئ البحر وكانت منتهى المتعة لنا عندما تعلو الأمواج وتشتد وتثور على الحواجز و تتخطاها وترشنا بالمياه، فتغطي وجوهنا وملابسنا، كأنها تلاعبنا، وتمزح معنا، وربما تهددنا بالغرق في أية لحظة.

ليلة العيد التالي بعد هذه الواقعة كنت قد نسيت كل شيء عن سلوى، وكنت في المحل مشغولًا بالبيع وكان المحل مزدحمًا، والناس تدخل وتخرج في حركة متواصلة، وكان العرق يتصبب على وجهي عندما رن جرس الهاتف، فلم أرد، فالعمل كثير، وطوال السنة لا

نعمل مثل الأيام التي تسبق الأعياد، فرن الهاتف مرة أخرى، فظننت أنه أمر هام فرفعت السماعة لأسمع **صوت وجدي يقول لي:**

كل سنة وأنت طيب يا أستاذ إبراهيم.

فطلبت منه المجيء إلى المحل، عندما أتى أعطيته العيدية، كان وجدي في التاسعة عشرة من عمره، ويساعد أسرته برغم صغر سنه بعد وفاة أبيه، وكان خفيف الروح، ولقد أقسم لي أنه اتصل بي محبة وليس من أجل المال، ثم ضحك كثيرًا وأضحكني عندما **قال لي:**

أرأيت يا أستاذ ماذا حدث لعم جمعة؟

كان عم جمعة صاحب المحل الذي يعمل فيه، لقد ظلت سلوى تأتي إليه كل يوم لتسأل عنك في البداية ثم لتشكو منك ثم أحبته، وبدأت تأتي إليه بأكواب الشاي والطعام لتتناول معه الغداء، ولا يعرف كيف يتخلص منها، **ويقول عندما تنصرف:** أين مستشفيات المجانين في البلد؟ كيف يتركونها؟ ولقد رأتها زوجته في بادئ الأمر فأخبرها أنها تشكو من خديعتك لها، **فقالت:** لا ..لا أصدق هذا، فإبراهيم محترم؛ ولا يفعل مثل هذا، وهذه الفتاة ليس بها رائحة الجمال، إنها تثير الشفقة لأنها كبيرة وغير متزوجة، ولكنها غيرت رأيها عندما اهتمت بعم جمعة، فأتت زوجته إلى المحل، وضربتها أمام

الناس، وكانت فضيحة، ولم تصدق أنها مختلة، **وقالت له:** من المجنون بالله عليك أنا أم هي؟ أهذه خلقة مجانين؟ إنها تتكتك وتخطط، ما الدليل على جنونها؟ تعليم وأناقة وكلام جميل، وأقسمت لو هذه الفتاة أتت إلى المحل مرة أخرى ستطلب الطلاق في المحكمة، كل ذلك أمام سلوى، المشكلة أن سلوى اتصلت بعم جمعة، وطلبت منه الزواج عرفيًا لتقابله بعيدًا عن زوجته، وبدون أن تسبب له المشاكل، فلم يجد بدًا من أن يعطي زوجته تليفونه وترد عليها، وهددتها بقتلها إن لم تكف، وبذلك انتهت القصة. رغمًا عني فرحت لما حدث في عم جمعة، فالناس لا تتعاطف معك ولا تصدقك إلا إذا ذاقت ما ذقت منه بدلًا من شكر الله على المعافاة.

كانت أمي سورية الأصول هي وأبي، حيث أتى جدودهما الأباعد من سوريا، لذلك ورثت منهما الجمال وكنت متفوقًا في الدراسة، ولكن كل ذلك لم يشفع لي عند أمي، كان صاحب المحل قاسيًا، ومرة ضربني لضياع مقص من المحل، ورغم ذلك صممت أمي على الاستمرار في العمل بحجة الاعتماد على النفس، ذات مرة شتمت أخي بكلمة سمعتها من رجل في الشارع ولم أكن أعرف معناها، فأحرقتني بملعقة ساخنة تركت أثرها حتى الآن على يدي،

وإذا اشتكى مني أحد الجيران كانت تضربني بدون معرفة السبب، وإذا دافعت عن نفسي وأشحت بيدي **قالت لي:**

أنت عاق لا تحترمني، فالأم لها احترامها، أنا لا أسامحك أبدًا.

كبرت بعد ذلك وتعودت على العمل في الإجازة الصيفية، ولكن عندما كبرت عملت في المطاعم، فأغسل الصحون أحيانًا، أو أنظف الأرض، وكما تعلمت الاعتماد على نفسي من العمل تعلمت التدخين لأقلد الرجال، كنت أشعر بأهميتي وانا أدخن وأشعر أنني رجل، عندما دخلت الجامعة أصبحت أقدم الطعام في المطاعم فقط، لم أنس أبدًا ذات مرة عندما قدمت الطعام إلى أستاذي في الجامعة، لم أنتبه إلا وأنا أضع الطعام أمامه، فابتسمت لأداري خجلي، فأحس بي، **فقال لي مجاملًا وهو يربت على كتفي:** حبيبي، ذكرتني بأيام شبابي وأيام الكفاح، ثم عرفت بعد ذلك من زملائي في الجامعة أن هذا الأستاذ كان من عائلة معروفة، وكان ثريًا، فاحترمته وأحببته، أما ما ضايقني وجعلني أكتئب وأكره نفسي عندما رآني زميلي **جمال**، فقد نظر إلي باحتقار واستهزاء عندما قدمت له الطعام، لم يكن يتخيل أنني أعمل في مطعم في الصيف، لأنني كنت أرتدي الملابس الأنيقة، فأمي لم تأخذ مني شيئًا في الجامعة لكي أهتم بملبسي. وكنت لا أجالس الفقراء في الجامعة، وحاولت أن أظهر بمستوى أرقى مما أنا

فيه، ويبدو أنه لهذا السبب احتقرني جمال، لو كنت طبيعيًا في علاقتي مع كل الزملاء ربما لما احتقرني هكذا.

بعد نجاحي في الثانوية العامة رغبت في الالتحاق بكلية التجارة لأعمل محاسبًا، فأقنعني والدي أن أدخل كلية الزراعة لكي أحصل على الفدادين التي توزعها الدولة على خريجي كلية الزراعة، وبعد التخرج قدمت أوراقي لأستلم قطعة أرض من الأراضي الجديدة في الصحراء، حيث توزع الدولة خمسة فدادين لكل خريج، وذهبت إلى برج العرب حيث المكتب المسئول عن قبول الطلبات، وطوال الطريق كنت أحلم بالأرض والسكن وإمكانية الزواج فيها، تحملت الطابور الطويل تحت أشعة الشمس الحارقة لأسلم أوراقي، وتحملت وقوفي مرة ثانية بعد رفضها لنقص عدد من الطوابع، كل ذلك تحملته عن طيب خاطر لتحقيق الحلم، وبعد ما ظهرت النتيجة لم أجد اسمي، وعرفت فيما بعد من أحد الأصدقاء أن الموظفين أعطوا حصة كبيرة من الأراضي لمعارفهم، فأصبت بالإحباط، ولم أجد عملًا أعمله إلا مدرس زراعة في مدرسة بمرتب ضئيل، شجعني أبي على الحفاظ على هذه الوظيفة الحكومية لأنها ضمان للمستقبل، فلي معاش وربما أسافر إلى إعارة، ولكنني أصبت

بالكآبة من هذه المهنة، فلأنها مادة غير أساسية لم يهتم بها أحد من الطلبة، وكان المرتب ضئيلًا جدًا والطلبة لا يفكرون في أخذ دروسًا خاصة فيها، واستهزئوا بي أيضًا، كنت أسهر ليلًا لأعمل في المطعم، وأذهب في اليوم التالي إلى المدرسة وأنا متعب منهك القوى، لم يكن يأتي أحد منهم بكراسة، كنت أسألهم فلا يردون علي، كنت أرى في أعينهم وتصرفاتهم لامبالاة عجيبة، ذات مرة ضربتهم كلهم ضربًا عنيفًا بعد أن سمعتهم يضحكون علي وأنا أكتب على السبورة، في نفس اليوم وأنا منصرف من المدرسة في أول الطريق أحسست بحصى خبطتني في رأسي فتحسست مكان الضربة بيدي فرأيتها مبللة بالدم، ونظرت خلفي وكان الطلبة متفرقين ولكن لم أعرف من منهم صاحب هذه الرمية.

في اليوم التالي استدعاني المدير، وعند الاقتراب من حجرته سمعت ضوضاء عالية فتوقعت شرًا، ووجدت أولياء الأمور جميعًا عند المدير غاضبين مني، وهددوا بالشكوى إلى الإدارة، فاعتذرت لهم، ولكنهم لم يقبلوا اعتذاري، وأراد أحدهم ضربي ومنعه المدير قدر استطاعته، وبعدها لم أذهب إلى المدرسة مرة أخرى، وصممت على ترك العمل تمامًا، وانتسبت في كلية التجارة، وظللت أعمل في

المطعم ممنيًا النفس بمستقبل أفضل كمحاسب في شركة محترمة أو أفتح عملًا لحسابي، تضايق أبي مني عندما تركت المدرسة، فقد كان يرى العمل الحكومي ضمانًا للمستقبل.

كنت أذهب إلى الجامعة يومًا في الأسبوع، وأحيانًا يمر شهر ولا أذهب وخاصة بعد ما تعرفت على بعض الزملاء الذين وعدوني بأنهم سيساعدونني في تصوير المحاضرات، وعندما اتصلت بزميلي **شهاب** قبل الامتحان بأسبوعين لتصوير المحاضرات ضرب لي موعدًا بعد انتهائه مباشرة من حضور إحدى المجموعات مع أحد المعيدين، وفي بيته تعرفت على كل المجموعة التي كانت مكونة من عشر طلبة، تطوعت إحدى الفتيات بالمساعدة لأن محاضراتها كاملة، وبعد ذلك دعتني إلى حضور حفل زفاف أخيها، فلم أر بأسًا في ذلك وخاصة أنها دعت كل المجموعة، وذهبت، رأيت أن ذلك فرصة في رد الجميل، واشتريت للعريس هدية، فأنا كنت قد انتهيت من الصف الأول ولايزال أمامي ثلاث سنوات، بعد ذلك اتصل بي أخوها وشكرني، ثم أتى إلى المطعم الذي أعمل فيه وتناول فيه الغداء عدة مرات، ثم دعاني إلى منزله، وبدأت والدة **أمال** وهذا اسمها تلمح لي بأنها تحب الشباب المكافح، وأنها تتمنى عريسًا لابنتها مثلي وما إلى ذلك.

الحُلْم الغريب

لم تكن أمال جميلة ولا دميمة، ففكرت في الأمر، فأمها لن تكلفني شيئًا كما قالت، وكنت أريد الزواج، فتقدمت إليها، وعندما كلمت أمي في موضوع خطبتي، سألتني عن لون العروس فأخبرتها، فبدا على وجهها الحزن، **وقالت لي:**

دائمًا أدعو الله أن يكون لي أحفاد حمر الوجوه زرق العيون.

فضحكت وقلت لها هؤلاء طلباتهن كثيرة يا أمي لا أقدر عليها. **فقالت لي:**

كل إنسان يتزوج من يشبهه فكل العائلة بيض البشرة.

فقلت لها: المال هو المتحكم وليس اللون.

فرفضت **وقالت لي:**

لا أحب زوجة دميمة لك، والعمر أمامك طويل فلم العجلة؟

فأقنعتها أنني لن يرضى بظروفي أحد، وهذه الفتاة لديها شقة في عمارة أبيها، ولن تكلفني شيئًا وهي ليست دميمة، وأنا أريد الزواج، فوافقت على مضض، ورغم ذلك لم أشعر بأية فرحة يوم الخطبة، ولكنني شعرت كأنني أدفن ميتًا، وهذا الميت لم يكن إلا أنا، لاحظت أمي وجومي الشديد وحزني بعد الخطبة، فوبختني، **وقالت لي:**

لماذا تفعل في نفسك هكذا؟ فأنت لازلت شابًا.

الحُلْم الغريب

كانت أمي أحيانًا تتكلم بالحكمة، وأحيانًا كثيرة كانت مثل الأطفال، وهذه المرة كان ردها يدل على حكمة بالغة، تذكرت قول أبي الدائم لها أثناء شجاره اليومي:

هذه المرأة ستصيبني بالجنون؛ إنها أحيانًا تتصرف كالحكماء، وأحيانًا كالمجانين، والله لا أفهمها!!

وبدأت أم أمال تطلب مني مالا طاقة لي به، وتقارن بيني وبين عريس ابنة أختها، فلم أذهب إليها لمدة شهر، فلقد نفرت منها لكذبها وكرهت الزواج، ولم تعد بي رغبة في الزواج بسبب ما أشعر به من هم، ولكنها اتصلت بي وألحت علي بالعودة، **وسألتني:**

ماذا حدث؟ لماذا لا تأتي؟

وكأنها لم تفعل شيئًا، ثم عندما اقترب موعد عقد الكتاب طلبت مني أن يكون في قاعة كبيرة، ووجدت كلامها مناقضًا لأفعالها، وازدادت كآبتي وكرهت الحياة وأصبحت بلا روح، أتحرك مثل سيارة قديمة متهالكة أو أي آلة صدئة، حتى النكات التي كان يلقيها زملائي في العمل لم تكن تضحكني، وكانت تتجدد كآبتي كلما أرى أمال.

بعد ذلك مرضت أمال ولم تذهب إلى الجامعة، فذهبت لأصور المحاضرات لي ولها من شهاب فلم أجده، ووجدت **سهام**، كنت قد تعرفت عليها في نفس مجموعة شهاب، لا أعرف لماذا عندما رأيتها كأنما وجدت نفسي الضائعة، أو وجدت روحي قد بعثت بعد موتها، كانت نحيفة وسمراء ومقبولة الشكل، ولكنها كانت خفيفة الروح وذكية، جلست معها قرابة الساعة في محل التصوير أمام الجامعة لم أشعر بمرور الوقت، بعد ذلك تقابلنا مرة أخرى، وشعرت بنفس الفرحة، كلمت أمي أنني أريد ترك أمال ولكنني خجل من أخيها وأبيها، فشعرت بها هي أيضًا خجلى منهما، أردت تشجيعًا من سهام، أريد من يقف بجانبي، فحدثتها عن عدم ارتياحي من خطبتي لأمال، فكان ردها مفاجأة جميلة لي فيبدو أنها تبادلني نفس الشعور فلقد قالت لي أنها لاحظت أيضًا حزني بعد هذه الخطبة، ثم قالت لي بعد قليل من التردد:

أشعر أيضًا أن أمال غير سعيدة، يبدو أنه حقًا من القلب للقلب رسول.

وشجعتني على مواجهة الموقف بشجاعة، **وقالت لي:**

إن الزواج ليس لعبة ولا نزهة قصيرة، وإذا كنا نختار بعناية من نصاحبه في نزهاتنا فكيف نتساهل في اختيار صحبة العمر؟

وعندما رأتني مترددًا أخشى من أن أكون قد ظلمتها قالت لي كلمة جعلتني أصمم على تركها:

لو تزوجتها وأنت تكرهها ولا تشعر بقبول ناحيتها فأنت ستكون أكبر ظالم، أما إذا تركتها فأنت ستجد من يسعدك وهي ستجد من يسعدها فرحمة الله واسعة.

أظهرت تعجبي من فطنتها وذكائها، فلاحظت هي ذلك، **فقالت لي:**

إنها خلاصة تجارب الكبار، هكذا علمتني أمي، فلي خال خطب تسع مرات حتى التقى بمن ارتاح لها قلبه.

طلبت من أبي إنهاء هذا الأمر بعدما خجلت أمي من إنهائه، فبعد أن وبخني على أن دخول البيوت ليس لعبة وبنات الناس كذلك لسن لعبة أنهى الموضوع، ويبدو أن أمال لم تشعر بافتقادي، فقد قابلتها في الكلية بعد ذلك فوجدتها لا مبالية بي، وكانت سهام صادقة في كلامها معي عنها، أما أمها فقد اتصلت بأمي عدة مرات للصلح، فقد كانت تخشى على ابنتها من العنوسة وفي نفس الوقت تريد ترويضي، ولكنها أخبرتها أن كل شيء قسمة ونصيب. وبعدما أيقنت أنه لا رجوع لي، **قالت لأمي:**

منه لله والده فهو السبب، فلقد كان إبراهيم يحب ابنتي حبًا جمًا ووالده هو الذي فرق بينهما.

بعد ذلك لم أنقطع عن مقابلة سهام في الكلية، وتوطدت علاقتي بها، عندما رآني شهاب معها تعجب، **وقال لي:**

هل تصدق؟ سهام هذه لا تكلم أي شاب وإذا كلمها أحد لا ترد عليه، هكذا هي طوال العام.

لم أنم ليلتها من الفرحة، وتأكدت أنها تحبني حقًا، ولم أسع لمقابلتها خارج الجامعة قط فأنا أخجل من ذلك، كانت مقابلاتي كلها داخل الجامعة، وكانت رسمية يعني آخذ كراسة محاضرات، أعيد كراسة المحاضرات، أسأل عن المنهج......إلخ، تمنيت الخروج معها بعد الارتباط الرسمي، وبعد ذلك عرفت أن والدها ضابطًا في الشرطة، فتوقعت أنه سيطلب مني مهرًا كبيرًا، مما جعلني أبذل قصارى جهدي في العمل لأدخر بقدر الاستطاعة، وحمدت الله على تركي لأمال كلما قارنت بين حالي مع سهام وحالي السابق مع أمال، فالفرحة مع سهام تجعلني أنسى تعب العمل، وتجعل لحياتي قيمة، كنت أنتظر رؤيتها بفارغ الصبر، وكلما اقتربت منها وتعاملت معها

أكثر عرفت مزايا لها أكثر فهي تفهمني بسرعة، ويكفيني هذه الصفة لاختيارها كشريكة حياة، **وسألت نفسي**: لماذا يدفن الإنسان نفسه أحيانًا في هذه الحياة ويمشي في جنازته تحت مسمى أية ظروف؟ لماذا يضيق رحمة الله الواسعة بتسرعه وعجلته وأحيانًا بجبنه؟

عزمت على التقدم رسميًا لسهام، وكلمت أبي وأمي، فسألتني أمي الأسئلة المعتادة عن الشكل واللون، ولكنها لم تعترض بسبب الفرحة التي كانت بادية علي منذ معرفتي بسهام، فلقد كثر مزاحي معهم في البيت واختفت أي علامات للحزن حتى طفولتي البائسة نسيتها، ورأيتها تجربة ماضية كتجارب العظماء والقادة، أما أبي فقد أخذ علي المواثيق أن أفكر أولًا حتى لا أعرضه لمثل الموقف السابق.

يوم نتيجة آخر عام في الكلية، اتصلت بسهام ولم أكن أتصل بها إلا نادرًا عندما أطلب منها موعدًا لأصور المحاضرات، وطلبت منها أن نتقابل في الكلية يوم النتيجة، رأيتها وهي مقبلة بشكل جديد، وقد غيرت لون شعرها، وترتدي ملابس جديدة أنيقة، فأدركت من شكلها أنها فرحة، واستنتجت أنها فرحة بي كما أنا فرح بها، وبعد أن تبادلنا التهاني على النجاح استأذنت لأنها ستذهب لشراء الشبكة اليوم، ولقد أجلت شراءها حتى يوم النتيجة!

تمالكت نفسي بالكاد، فلقد عشت في وهم نسجته وحدي، وعشت في بيت العنكبوت هذا عامين، فانهار بي من هذه الكلمة.

لم أرد أن يظهر علي الحزن فسهرت الليلة في المحل حتى وقت متأخر حتى أتأكد من نوم أبي وأمي وإخوتي فلا يرون آثار الخيبة والحزن على وجهي، كان حزني عظيمًا مثل مقدار فرحي تمامًا فلم أكن أعرف التوسط في الأمور.

كان اليوم يوم جمعة، صلينا الفجر جميعًا، فقد كانت أمي حريصة على أن نصلي جميعًا، أنا وإخوتي، كنا نصلي من سن مبكرة، وأنا الوحيد من إخوتي الذي تأخر في سن الصلاة، ولا أنسى أبدًا سبب مواظبتي على الصلاة، فقد كنت في سن التاسعة أو العاشرة، لا أذكر تمامًا عندما حلمت برجل يضربني بشدة ويأمرني بالصلاة، من وقتها وانا أصلي، في يوم الجمعة هذا صلى أبي الفجر ودخل لينام فسمعت صوت حشرجة قوية، فدخلت لأسأله هل يريد ماء، فوجدته ميتًا، رحمه الله، نظرت إليه وبكيت بكاء مرًا، وندمت على عدم رفقي به في الكلام، فلقد كان حنونًا متسامحًا بل كان أكثر من متسامح، فهو لم يحزن أصلًا من كلامي الغليظ أو ردي عليه، لعنت نفسي لماذا لا نعرف قيمة الشيء إلا بعد فقدانه؟

بعد موت أبي لم تسألني أمي عن سهام فحمدت الله، فأنا لم أخبرهم بما حدث وهم ظنوا أنني لا أفكر فيها بسبب حزني على أبي والقيام بأعباء الأسرة وتركتهم يفهمون ذلك، وبرغم حزن أمي عليه إلا أنني رأيت على وجهها بعض علامات الفرح أنني لا أذكر سهام مطلقًا؛ فقد كانت أمي تكره السمر، ولا تقبّل أبدًا طفلًا أسمر، لم تكن تستطيع إخفاء امتعاضها من السمر.

اجتمعت الأسرة في العزاء، حضر أقاربنا من الريف، ولاحظت نظر امرأة خالي **توفيق** لنا نظرات غريبة أنا وإخوتي، وعندما رأت أخي عليًا وأختي فاطمة يبكون بشدة **قالت لهما بحقد واضح:**

لماذا تبكيان وقد ترككم أبوكم وأنتم ما شاء الله على وشك التخرج من الجامعة؟ والبركة في أخيكم إبراهيم، لن يترككم.

كان أبي بعمله الإضافي يساعد كثيرًا في البيت، وبعد موته كنت مسئولًا عن سد هذه الفجوة.

ترك أبي أخي عليًا وكان في كلية التربية، وأختي فاطمة وكانت في كلية الفنون الجميلة، وكان معاشه قليلًا، أما الورشة التي كان يعمل فيها بعد الظهر فقد اكتفى صاحبها بإعطاء أمي مبلغًا من

المال، فالعمل الحر لا يعطي معاشات، ولم يكن معاش أبي من العمل الأساسي يكفي مصاريف البيت.

مات أبي في نفس الليلة التي عرفت فيها حقيقة مشاعر سهام نحوي، وكان حدادي وحزني مضاعفًا لذلك طالت فترة الحداد والحزن.

في أحد الأيام المشمسة كنت في المحل أفكر في أجرة المحل، ومصاريف إخوتي وما ينبغي أن يكون معي للزواج، فأنا سأتزوج في يوم من الأيام برغم حزني على سهام واعتقادي بأنني لن أحب أبدًا مثلها لابد أن أدخر لكي أتزوج حتى أنساها تمامًا. مرت فتاة في العقد الثالث من عمرها، ترتدي ملابس أنيقة، ويبدو عليها الثراء، وشعرها مصفف بعناية ومصبوغ باللون الأصفر وتعلو وجهها الأصباغ، وترتدي كثيرًا من الإكسسوارات، انتقت بعض الملابس الغالية، فرحت وقلت في نفسي الحمد لله يا فرج الله، انتقت بعض الملابس سعرها يصل إلى ثلاثمائة جنيه، وسألتني عن السعر فأخبرتها، فمدت يدها بثقة بعشرين جنيه، **وقالت لي:**

أنا موظفة من مصلحة الضرائب.

فلم آخذها، وقلت لها وأنا أبتسم من الغيظ:

اعتبريها هدية مني.

ثم أغلقت المحل وذهبت إلى المسجد القريب من المحل، كان المتسولون يجلسون على جانبي المسجد، لم ألتفت إلى نداءاتهم فلقد كنت في قمة غضبي، وكان الشيخ يؤذن لصلاة العصر، فدخلت وصليت ركعتين ودعوت عليها أن لا تهنأ بارتداء ما أخذت مني بسيف الحياء، ارتحت بعدما دعوت عليها، وبعد الصلاة جلس الشيخ ليلقي خطبة؛ ففرحت فقد كنت في أمس الحاجة لسماع كلمة تبشرني بالخير في هذه الدنيا التي أتعبتني منذ صغري، كان الشيخ طويل اللحية، ضخم الجسم، جهوري الصوت، يوحي شكله بالقوة والهيبة، كنت في الصف الأول فرأيت رجلًا وجيهًا يقدم له ظرفًا به بعض المال ويطلب منه إنفاقه في وجوه الخير فرفض، وطلب منه تقديمه لمدرسة من المدارس لمساعدة الطلبة الفقراء، وأخبره بطريقة جافة فظة أنه يرفض قبول تبرعات من أحد.

ثم تنحنح الشيخ وقال:

قبل أن أبدأ الدرس أكرر يا أحبائي أنني لا أقبل هدايا ولا تبرعات منعًا للإحراج.

الحُلْم الغريب

قلت في نفسي: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير العباد كان يقبل الهدية، ما هذه الفظاظة؟

ثم بدأ الدرس، فطلب منه أحد الجالسين أن يسأله سؤالًا،

فقال له:

اسأل يا حبيبي، لكن بشرط ألا تسألني مالًا ولا تشكو لي من الفقر، فاشتكى له الرجل من زوجته، فنهره **وقال له:**

لا تشتك منها في غيابها، تعال إلى مكتبي في المسجد وهي معك لأحكم بينكما.

فقال الرجل: إنها........

فنهره بشدة وقال له:

قلت لك كفى يا رجل.

ثم تكلم عن العبادة والتوحيد. **وقال:**

لو تعلمون معنى إياك نعبد والله ما أصبح حالكم هكذا.

كرهت هذا الشيخ، وانصرف إلى مكتبه، وتأهبت للانصراف، نويت بيني وبين نفسي ألا أعود أبدًا إلى هذا الشيخ الفظ.

الحُلْم الغريب

تقدمت إلى مكتب محاسبة شهير للتدريب، كنت أحلم بعد فترة التدريب القصيرة التي تستغرق ثلاثة أشهر أن أتقدم إلى شركة أعمل بها كمحاسب، وأذهب إلى المحل بعد الظهر للإشراف عليه. قابلت مدير مكتب المحاسبة، كان حاصلًا على الدكتوراه، وكان رجلًا بدينًا أصلع يبدو عليه الوجاهة، وكانت حجرته مؤثثة تأثيثًا فاخرًا يليق بسمعة هذا المكتب، **قال لي:**

أنت مثل ابني سأعلمك كل شيء.

ففرحت وابتسمت على هذا الحظ الجميل الذى أرسل إلي هذا الرجل الحنون، **ثم قال:**

ولكن شكلك يا بني ليس أنيقًا، ولماذا تترك لحيتك هكذا؟

كنت قد تركت لحيتي حزنًا على فراق سهام، **ثم قال لي:**

تعال، اقترب لأربط لك رباطة عنقك بطريقة أنيقة، لابد أن أجعل منك محاسبًا أنيقًا.

فرحت بكلامه، فأنا بالفعل أهملت في شكلي منذ تركتني سهام، وبرغم محاولتي في هذا اليوم أن أبدو أنيقًا أشعر أنه ينقصني شيء جوهري، وهو فقدان الروح الذي يجعل الإنسان يمشي مترهلًا وإن لبس أفخر الملابس، ثم فك رباطة عنقي وربطها مرة أخرى

بطريقة قبيحة، عندما نظرت في المرآة أدركت أنه يحب الاستعراض، وتعودت على طريقته خلال الشهر الذي أمضيته معه تحت التدريب، فكل يوم ينبهني على عيب في شخصيتي أو لبسي أو لون ملابسي، أحسست أنه مريض ويريد أن يجعلني أكره نفسي، حاولت احتماله حتى أنتهي من فترة التدريب، وكان مكتبه له شهرة ليس من أجله وإنما من أجل صاحب المكتب الأساسي، أما هو فقد كان معينًا من قبله، وبعد شهر قلت له رأيي في العمل فثار ثورة عارمة وشتمني، **وقال لي:**

لقد جئت إلي وأنت حمار - وضغط على كلمة حمار- ثم تريد الآن أن تعمل علي أستاذًا أيها الغبي؟

فتركت المكتب بلا رجعة.

كنت قد استفدت من تدريبي في مكتب المحاسبة، فتقدمت إلى شركة مقاولات لأعمل فيها، كنت قد قرأت الإعلان عن الوظيفة في إحدى جرائد الإعلانات، وتعجبت عندما قبلوني بمنتهى السهولة، كنت أتخيل نفسي سأنتظر طابور المتقدمين قبلي، ولكنهم اتصلوا بي وقبلوني، عملت لمدة شهر، وفي اليوم المفترض فيه أن أقبض مرتبي

قُبض على صاحب الشركة وأُدخل السجن بتهمة الاستيلاء على أموال الناس، وعدم تسليمهم الشقق في ميعادها وعدم البناء أصلًا، لم يكن نصابًا وإنما كان متعثرًا ماليًا.

فكرت في السفر إلى اليونان؛ فقد كانت لي خبرة بالعمل في المطاعم، ولكن من أين أحصل على التأشيرة وهي غالية مع تكاليف الإقامة هناك حتى أجد عملًا،عندما علمت أمي أنني أحلم بالسفر ولكن ليس معي ما يكفي، اقترحت علي السفر إلى عمي **عبد الهادي** في الريف لأطالب بميراثي من جدي من البيت الكبير الذي يسكنون فيه، فكل واحد من أولاده بنى شقة في نفس البيت، ونحن لا نستطيع تأجير حجرة.

كنت أزور القرية في طنطا كل صيف عدة أيام بعد أن أستأذن من صاحب العمل، لم تكن أمي تعترض على سفري، لأنني كل عام كنت أدفع لخالي إيجار المنزل الذي ورثه هو وأمي عن أبيهما، كان المنزل في كليوباترا قريبًا من بيتنا، كان مكونًا من أربعة أدوار عالية، كنظام البيوت القديمة، فالسقف شديد الارتفاع، والسلالم عالية، وكان يطل على الترام مباشرة، بعكس بيتنا كان يبعد عنه

في الداخل لمسافة عشر دقائق سيرًا على الأقدام، وكان مكونًا من تسع شقق، إيجارها في الشهر ستة وثلاثون جنيهًا، يأخذ خالي ثلثي الإيجار وأمي الثلث، إذا زارنا عمي في بيتنا تعطيه أمي نصيبه، أما إذا لم يأت فكنت أعطيه له في زيارتي، أحيانًا كان يتصل بأمي ويخبرها بأن تأخذ الإيجار لها ولكنها كانت تخشى من زوجة خالي، لذلك حرصت على أن ترسلها إليها، لذلك كان خالي يأخذ مني الإيجار أمام زوجته، ثم يسألني عن موعد رحيلي ويأتي إلي في المحطة ويعطيني الإيجار مرة أخرى.

هذا البيت كان له قصة، فعندما أتى جدي وجدتي إلى الاسكندرية لدخول **خالي عبدالرحيم** رحمه الله الجامعة، وكان جدي قد ضعفت صحته لإصابته بمرض السكر والضغط والقلب، وأتت أمي معهما وكانت مخطوبة لأبي، ولم يتركا إلا خالي توفيق ليعتني بالأرض والمواشي، وكان خالي توفيق حنونًا، يرسل إلى أبويه كل محصول ما يكفيهما طوال العام، ثم صمم جدي على أن تتزوج أمي قريبًا منه في الاسكندرية، وكان أبي بطبعه يشتاق إلى السفر إلى المدن التي سمع عنها الكثير ممن سافروا إليها من أهل البلد، فاستقر أبي بجانب عائلة أمي في الاسكندرية، ثم اشترك خالي عبد الرحيم في إحدى المظاهرات ضد الإنجليز وكان هو الذي يهتف في تلك

المظاهرة، فأصابته رصاصة ومات شهيدًا، فدفعت الحكومة لأبيه تعويضًا، فأكمل عليه من ماله واشترى قطعة أرض على الترام، ثم أخذ يبنيها طابقًا طابقًا، وأجرها ليعيش بأجرها، وبعد موت ابنه ازداد ضعفًا وبعد ما أكمل بناء المنزل وكتب عقود الإيجار للمستأجرين توفى، بعد وفاته مباشرة طلبت جدتي من خالي توفيق أن تعود إلى القرية لتعيش معه، وسافرت معه وعاشت عشر سنوات ثم توفيت، كان عمري وقتها عشرين سنة، كنت أرى جدي طيبًا عندما كنت صغيرًا، كان دائمًا يمسك بالمسبحة ويستغفر الله، أما جدتي فدائمًا كنت أراها تجلس في حجرة أخرى لم أرها أبدًا تجلس بجانبه، كانت تنظف البيت ببطء وتطهو الطعام ببطء ثم تجلس على الأرض بجانب الحائط، لا تنطق بكلمة، مطرقة برأسها كأنها في السجن، وكانت أمي عندما تزورها تسلم على أبيها وتقبل يده، ثم تذهب إلى أمها لتسلم عليها ثم تعود إلى الحجرة الجالس فيها أبوها وتجلس بجانبه على الأريكة، أحيانًا كانت جدتي تأتي وتجلس في نفس الحجرة ولكن تجلس مطرقة لا تتكلم. كنت أظن أن هذا بسبب حزنها على ابنها.

الحُلْم الغريب

كنت أستمتع بإقامتي في الريف، فالجو جميل وهادىء والسماء صافية مترامية الأطراف أمامك، ورائحة الخضرة يريح الأعصاب واللون الأخضر كذلك، وشكل المياه الجارية يضفي على المكان السحر والبهجة، كل إنسان يحن إلى أصله وكلنا نحب الريف فأول مكان سكنه آدم هو الجنة، والجنة ماهي إلا شجر وماء، كنت عندما أسير الهوينى بين الحقول كأنني أسير في الجنة وخاصة عندما يطير أمامي فجأة سرب من العصافير أو الحمام، وكانت تصحبنا رائحة زكية طوال الطريق كمصاحبة حسناء فاتنة.

وكنت أمكث في بيت عمي عبد الهادي عدة أيام لأستمتع بجو الريف الجميل وأنسى كل الأحزان، وكان ابنه **هشام** وهو في مثل سني يزورنا عدة أيام ليستمتع ببحر الاسكندرية، ولي معه ذكريات جميلة، فهو ليس مجرد ابن عمي ولكنه صديق عزيز مقرب إلي، أذكر ذات مرة أنه زارنا ومعه جارهم **مصطفى** الذي طلب منه السفر معه لرؤية البحر، كانت للجيرة معنى كبير في الريف فالجار مثل القريب، وكانت أمي تعرف عائلة مصطفى لأنها تربت في الريف، أتى مصطفى ومعه هدية من والدته عبارة عن فطير وجبنة وسمن ودجاج وبط، كنا في الصف الأول الثانوي، ذهبنا إلى البحر معًا،

عندما رأيت مصطفى في بادئ الأمر تضايقت قليلًا، وعندما لاحظت أمي ذلك نصحتني بحسن استقباله، **وقالت لي:**

كان طفلًا صغيرًا عندما دفعك في الترعة، لاتكن أسود القلب.

خرجنا يومها من البحر فلم نجد ملابسنا ولا أحذيتنا وكنا قد تركناها على الشاطئ، فعدنا إلى البيت في سيارة أجرة بلباس البحر، وصعدت إلى البيت لآخذ من أمي أجرة السائق، كانت ذكريات جميلة برغم ما يشوبها من تعب، فلقد كان هشام ينتظرني بعد الظهر حتى أعود من عملي لأتنزه معه، وكنت أحيانًا أنام في المواصلات العامة من التعب، ووجدت مصطفى كما هو لم يتغير فهو لايزال يحب عمل المقالب السخيفة، وكان سيتسبب في مشكلة لي بسبب مزاحه السخيف عندما استوقفنا أحد المخبرين في الطريق وكنا عائدين من الشاطئ في وقت متأخر، فطلب منا المخبر الاستعلام عن هويتنا، كنا صغارًا ولم نستخرج البطاقات الشخصية بعد، ولكنني كنت طويلًا وأبدو أكبر من سني، **فقال مصطفى لي وهو يمزح:**

لقد نسيت البطاقة مع البضاعة، أليس كذلك؟

فطلب مني المخبر الاتصال بأهلي ليأتي أبي ويستلمنا، فأقسمت له أنه يمزح وطلبت منه الرأفة بأبي وألا يفزعه في هذا الوقت من نومه، **فقال لي:**

لو لا إن شكلكم طيب لأخذتكم إلى قسم الشرطة للتحري.

لم تكن هذه المرة الأولى لمزاح مصطفى السخيف، فلقد دفعني ذات مرة في الترعة وهو يضحك، بعد ذلك أقسمت لهشام أنني لن أخرج معه ومصطفى هذا معنا مهما حدث، تخرج مصطفى من كلية التجارة وسافر إلى ليبيا للعمل هناك، وكان هذا مصدر سعادة لي؛ فعندما أذهب إلى البلد لم أكن أقابله وكنت لا أسافر أيام إجازاته، فبرغم قول هشام لي أن ما حدث من مصطفى كان بسبب صغر سنه إلا أنني أخذت انطباعًا سيئًا عنه لا أستطيع تغييره.

وتخرج هشام من كلية الهندسة وخطب قريبة له، وكان يجهز للزواج، كان الزواج عندهم سهلًا، فكل من أبناء عمي وأبناء عمتي بنى شقة في نفس البيت الواسع، عندما أذهب إليهم أشعر بالسعادة ترفرف على منزلهم والسكينة بعكس ما أشعر به في بيتنا من قلق وتوتر، كان بيت خالي توفيق قريبًا من بيت عمي عبد الهادي وعمتي كريمة، فلقد كان أهل أمي وعائلة أبي جيرانًا في نفس البلدة وأقارب، ولكن عائلة أمي نزحوا من القرية إلى الإسكندرية ماعدا خالي توفيق ظل هناك يهتم بأرضه الزراعية، وأبي الوحيد بين إخوته انتقل إلى الاسكندرية للعمل.

الحُلْم الغريب

سافرت إلى الريف، كنت أحب السفر بالقطار فطوال الطريق أستمتع برؤية الخضرة والمياه الجارية، نزلت في محطة طنطا فوجدت المحطة مزدحمة بالجنود ومعهم مساجين رجال وشباب يجرونهم وهم مكبلون في السلاسل، كانت أشكالهم بائسة، حمدت الله على أن حظي أفضل من حظهم، فشكلهم مخز والناس ينظرون إليهم مما يزيدهم خزيًا.

ركبت سيارة أجرة للذهاب إلى قرية عمي، وذهبت لزيارة خالي أولًا، لأنني إذا ذهبت لعمي سيأخذني الوقت وأتعرض لتأنيب خالي أنني تأخرت عن زيارته، عندما اقتربت من باب خالي سمعت زوجته وكان صوتها عال كالعادة **تقول:**

صلي يا توفيق وزكّي حرام عليك أنا بريئة من ذنبك.

فكان هذا الكلام بالنسبة لي مفاجأة، فخالي توفيق طيب القلب وحنون، لماذا لا يصلي ولا يزكي؟ حزنت من أجله، لم تخبرني أمي بذلك، كان أحفاد خالي يلعبون في فناء الدار عندما أسرع أحدهم إلى الداخل ليخبرهم بقدومي، لم تنس أمي أن توصيني بشراء بعض الحلوى لأطفال خالي وكذلك أحفاد عمي، كان عند خالي خمسة أولاد ابنتان متزوجتان وثلاثة أولاد، صلاح في الثانوي الزراعي والأخريان في الإعدادي، أما ابنته الكبرى فقد تزوجت مدرسًا

والأخرى تزوجت ضابطًا، مع أنهما لم يستكملا تعليمهما الثانوي، وكانا يعيشان بالقرب من خالي، ولكنهما يوميًا يذهبان إليه ودائمًا أولادهما يلعبون في فناء الدار، فرحبوا بي أجمل ترحيب، وتناولت معهم الغداء، كنت أشعر بالفرحة في بيتهم والحب يملأ قلوبهم، كانت زوجة خالي بغض النظر عن صوتها العالي تضحك ملء فيها على أي شيء هي وخالي، ثم ذهبت إلى عمي وعمتي.

نظرت إلى بيت عمي وأنا أقترب منه، كيف لم أنتبه من قبل لمساحته الشاسعة؟ لم أشأ أن أخبرهم بسبب مجيئي ولكنهم أحسوا بما جئت لأجله، **فقال عمي:**

البيت بيتك يا إبراهيم، لو تحب يا بني أن تبني شقة فيه مثل أولاد عمك فأهلًا وسهلًا بك، لكنه لا يباع، فهو بيت جدك، ولم يترك إرثًا رحمه الله، عندما مرض جدك بالمرض الخبيث بعت أرضه كلها، وأنفقت عليه ثمنها، ومات مع آخر قرش يا بني والله يشهد، حتى الدكتور اليهودي الذي كان يعالجه **قال لي:** أرح نفسك سيموت والدك، وفر مالك ولا تشتر الدواء فهو ميت ميت، فرفضت وأقسمت لنفسي أني سأنفق عليه طوال حياته ولو بعت

ملابسي، الحمد لله، أشعر أن الله بارك لي في صحتي بسبب خدمتي لأبي في مرضه، فقبل موته بعام لم يبارح الفراش، وكنت أطعمه كالأطفال في فمه.

كان سن عمي عبد الهادي أكثر من سبعين سنة، ولكنه كان قوي البنية، وصحته جيدة، وكل من يراه لا يعطيه سنه الحقيقي بل يبدو أقل من ذلك بكثير، ثم انتقل عمي إلى الحديث عن تاريخ العائلة وكيف ترك أبوه الصعيد بعد أن غضب عليه والده بسبب إحراجه أمام أخيه الذي وعده بزواج ابنه لابنته، فهرب ابنه إلى طنطا بعد أن تزوج أخت صديق له من طنطا تقابلا معًا في التجنيد، وكان تجنيده في ثكنة عسكرية بجانب طنطا، مما جعل صديقه يدعوه لقضاء الإجازة عنده كثيرًا ليريحه من عناء السفر إلى قنا، فتعجبت مما حدث فأهل العروس المحترمين لا يتمون الزواج إلا بحضور الأهل، **فسألت عمي:**

كيف وافق أهل جدتي على ذلك؟ فهذا مشين؟

فلم يرد، ثم أرني صورة جدتي مع أبي فعرفت السبب، كان جدي جميلًا وكانت جدتي لأبي خالية من ملامح الجمال، أعتقد أن والدها أراد أن يزوجها ووجد ذلك فرصة لا تعوض فضرب بعرض الأصول والأعراف عرض الحائط، كانت جدتي حقًا تقف

في الصورة في شموخ ترتدي شالًا من الفرو، فقد كانت ثرية وورثت عن أبيها الكثير ولكن كل ما ورثته وآل إلى زوجها وأولادها أنفق على مرضه حتى آخر قرش، ثم ترحم عمي على جدي لأنه كان طيب القلب رحيمًا، فعندما كانت تضربه أمه ضربًا قاسيًا كان والده يبكي **ويقول لها:** كفى.. كفى.

أحس هشام بعلامات الإحباط على وجهي بسبب مشاكلي المادية، فطلب مني الخروج والجلوس على شاطئ النهر قليلًا.

جلسنا على شاطئ النهر تحت ظل شجرة خضراء وارفة، كان شكل شجر الصفصاف وأغصانه متدلية في مياه النهر جميلًا يأخذ بالألباب، كأنه طفل يلهو بوضع يديه في الماء أو كأنه أم تحنو على صغيرها، كانت الشمس تميل إلى المغيب، وأحسست برهبة الرحيل، حاول هشام أن يخرجني من حالة الإحباط فذكرني بذكرياتنا معًا ونحن نلهو بين الحقول.

بعد ما هدأت اقترح هشام علي بأن أسافر إلى ليبيا، وقال لي إن مصطفى سيساعدني، فابتسمت رغمًا عني **وقلت له:**

إلا مصطفى، لا أريد مساعدة منه، **فقال لي:**

هذا كان منذ زمن، فلقد تغير ولم يعد طفلًا.

ثم قال لي:

بالمناسبة إنه في إجازة هنا لزيارة أسرته، هيا فلذهب لزيارته.

فرفضت بشدة **وقلت له:**

سيقول عني أنني أزوره من أجل مصلحتي، لا تضعني في موقف حرج.

فقال بإلحاح:

هيا نسأل عنه اليوم، وسأطلب منه أنا المساعدة غدًا.

فضحكت على هذه الخطة الواضحة، فأنا لم أسأل عن مصطفى منذ زمن، ولكن تحت إلحاح هشام ذهبت معه.

توجهنا إلى بيت مصطفى لنستفسر منه عن السفر والعمل في ليبيا، وفي الطريق **قال لي هشام:**

السفر إلى ليبيا غير محتاج إلى تأشيرة، ويكفي تصريح سفر من إدارة التجنيد وجواز السفر فقط، وهناك الملابس والعطور المستوردة رخيصة جدًا، ويمكنك التجارة فيها بوضعها في المحل.

وصلنا إلى بيت مصطفى ولم يكن بعيدًا، وبمجرد وصولنا رأينا جمعًا من الناس أمام البيت، وسمعنا صوت صراخ، واسترجاع

الرجال، فسأل هشام عن والد مصطفى فعرف أنه قد توفى منذ وقت قصير، فعرض عليهم المساعدة وتطوع بالذهاب إلى الصحة ليطلب تصريحًا بالدفن، وذهبت معه، وطوال الطريق أخبرنا أهل القرية بميعاد الجنازة، ثم عدنا إلى مصطفى وظللنا معه للمساعدة حتى انتهت مراسم الجنازة، ثم هرعنا إلى بيت عمي عبد الهادي لنحمل الأطعمة التي جهزتها عمتي وزوجة عمي لأهل الميت، ولم نترك مصطفى طوال اليوم.

قبل سفر مصطفى بيوم كلم هشام مصطفى عن عمل لي، **فقال له:**

سوف أساعده فهو شهم ولا أنسى له أبدًا وقوفه بجانبي معك في جنازة أبي.

وأعطاني هشام رقم تليفونه، وبعد ذلك حدثني مصطفى وأخبرني أن صاحب الشركة التي يعمل فيها محتاج بالفعل إلى محاسب هذا الأسبوع، وهو لن ينتظر، وحثني على الذهاب في أسرع وقت.علمت أمي بسفري فدعت لي بالتوفيق، وطمأنني علي بأنه سيشرف على المحل، **وقال لي:**

ادخر كل مرتبك ولا ترسل شيئًا.

كان قد تخرج وينتظر التجنيد، وبدأ بالفعل يذهب إلى المحل ويتابع العاملة.

ذهبت إلى إدارة التجنيد وأعطاني أحد العساكر استمارة **وقال لي مبتسمًا:**

اذهب بها بالسلامة.

فنفحته بضعة جنيهات سر بها، وعدت لأحجز تذكرة السفر.

يوم السفر ودعت أسرتي وأصحابي وكلمني هشام تليفونيًا، واعتذر لي بعدم مجيئه لتوصيلي لأنه سيتزوج بعد يومين ومشغول، قابلني **وائل** جارنا، وأنا أغادر باب العمارة فودعني وصمم على توصيلي حتى موقف الأتوبيسات.

كان وائل في مثل عمري وكان زميلي في المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية ولم نفترق إلا في الجامعة فقط عندما التحق بكلية العلوم، كانت أمي تريد توصيلي فرفضت، وأوصيت عليًا وفاطمة أن يبقيا معها، فلا داعي أن يوصلني أحد وخاصة لم تكن معي إلا حقيبة صغيرة، جهزت أمي لي أطعمة كثيرة فرفضت أن آخذها، فالسفر سيستغرق يومين؛ والطعام سيفسد في الطريق.

ونحن جلوس في المحطة أنا ووائل ننتظر قيام الأتوبيس رأيت غرابًا يحوم حولنا فلم أتوقع خيرًا ذلك اليوم، ركبت الأتوبيس كان معظم الركاب من الليبيين، شعرت باختناق من حرارة الجو ومن رائحة الأتوبيس، الطريق طويل ممل، ليس معي صاحب أتحدث معه، العزاء الوحيد في الطرق الطويلة عندما نجتازها هو الأمل، فبسببه يهون التعب، فلقد حلمت بالمال الذي يريحني من عناء الدنيا، وربما أتزوج يومًا ما، لم أكن بالشخصية المعقدة برغم ما مررت به من تجارب، كنت أكتئب بعض الوقت وليس كل الوقت، عندما وصلت لهذه الفكرة **سألت نفسي:** هل سأحقق أحلامي يومًا ما؟ أدار سائق الأتوبيس التلفزيون فثار في وجهه بعض الركاب الليبيون، **وقالوا له:**

لا نريد أفلامًا، معنا حريم.

كنت أود مشاهدة أي شيء لتضييع الوقت والوحشة، وحتى لا تنتابني أفكار غريبة، نزلنا في عدة استراحات، جلست وحدي، شعرت بالغربة والوحدة، دعاني أحد الليبيين لطعام الغداء فشعرت ببعض الألفة وفارقتني الغربة وهو جالس معي، كان الغداء لذيذًا عبارة عن نصف دجاجة وبعض الأرز، أردت أن أدفع الحساب فصمم الليبي على دفع الحساب، شربت كوبًا من الشاي ودخنت

سيجارة، وأخذت أنظر إلى الدخان المتصاعد حتى أفقت على صوت نفير الأتوبيس يستعجل المتأخرين، صعدت إلى الأتوبيس وتكلم الليبيون معًا بلغتهم السريعة التي لا أفهمها، عاودتني الغربة مرة ثانية، بعد ثماني ساعات وصلنا إلى السلوم، ونزلنا للتفتيش، ووقفت في الطابور، عندما أتى دوري نظر الضابط إلى الاستمارة التي ظننتها تصريح السفر، **وقال لي:**

كان المفرض أن تملأ هذه الاستمارة ثم تسلمها إلى إدارة التجنيد لختمها، آسف، عد مرة أخرى.

لم تكن العربات متوفرة وإنما كل أتوبيس بميعاد، كان الوقت ليلًا، وكانت نقطة التفتيش خالية من السيارات؛ فتطوع ضابط كان خارجًا بسيارته لتوصيلي إلى أقرب مكان به سيارات، فأخذت أتنقل من عربة أجرة لأخري حتى وصلت في اليوم التالي إلى الاسكندرية وأنا متعب وأجر قدمي من التعب، قابلني جاري وائل على السلم فقابلني بترحاب كبير مشوب بالسخرية، **وقال:**

حمدلله على السلامة، ما أخبار العمل؟ عدت في إجازة؟

ثم أخبر كل الجيران بعودتي، فأخذوا يمزحون معي على عودتي السريعة، اتصلت بصاحب العمل لأخبره بتأخري قليلًا، فعذرني.

كان حفل زواج هشام في اليوم التالي، وكانت أمي ذاهبة برغم شعورها بالحزن من أجل عودتي وتعبي، لقد خافت من عدم الذهاب حتى لا يقال عنها إنها حاقدة لأنه في مثل سني، فأشفقت عليها من السفر وحدها، ومع أنها حاولت إخفاء حزنها لكنها لم تفلح، فلقد كانت حزينة من أجلي حقًا، كان حفل الزواج في ساحة الدار، وكان بيت العروسين مؤثثًا ببساطة، وكانت تكاليف الفرح لاتزال أبسط من تكاليف أهل المدن، بدأ الحفل مبكرًا بعد صلاة العصر، ولم يكف أولاد عمي وأولاد خالي عن الرقص طوال ساعتين، حتى بنات خالي المتزوجات لم يكففن عن الرقص والضحك مع أزواجهن وأولادهـن، جلست مع الرجال وأنا أدخن، فشعرت بيد على كتفي تجذبني، فالتفت ورائي كان ابن خالي **صلاح** يدعوني للرقص معهم، فرفضت، فجرني وهو يضحك مصممًا على مجاملة هشام، لم أكن أجيد الرقص؛ ففي حياتي كلها لم أرقص إلا مرة واحدة وأنا في الصف الثالث الابتدائي؛ وعندما رأتني أمي ضربتني بالخرطوم وتركت آثارًا حمراء على كل جسمي، **وقالت لي:**

الرقص ليس للرجال.

دعانا خالي توفيق للبيات عنده هذه الليلة، صلت أمي قبل النوم صلاة طويلة ثم نامت، أما أنا فقد أصبت بوجع في بطني شديد

منع عني النوم، لعل هذا الوجع بسبب التفكير في رحلة الذهاب إلى ليبيا بعد يومين وقطع الطريق مرة أخرى، اشتد الوجع فخرجت إلى دورة المياه، وأنا في طريقي إلى دورة المياه مررت بحجرة خالي وكان صوت زوجته جهورًا كعادتها، **فسمعتها تقول له:**

مع أن أمك كانت غاضبة على أختك وماتت وهي تدعو عليها بعدم الفرح كل أولادها دخلوا الجامعة وابنها سيسافر ليبيا وسيلعب بالمال لعبًا، ويا حسرتى على صلاح ابنك لم يدخل الجامعة وخيبته قوية، كان ابن خالي صلاح في مدرسة ثانوي زراعي، وكان يأخذ كل سنة في سنتين، ولكنه يعمل في أرض أبيه وكان دائم الضحك والابتسام، وكان سيتزوج قريبًا فشقته في دار أبيه جاهزة، وكان خاطبًا ابنة أحد الجيران، ولكنني حزنت عندما سمعت هذا الكلام عن أمي، وقلت في نفسي لعله كلام نساء تأكلها الغيرة والحسد.

سافرت إلى ليبيا في المرة الثانية في سيارة أجرة، لم أشأ انتظار الأتوبيس لأنه لا يسافر إلا في أيام محددة، ولم أرد التأخر على صاحب العمل، لم أجد إلا مكانًا بجانب السائق، وبذلك كانت الشمس تضرب وجهي من الأمام ومن الجانب طوال الطريق، كان

السائق ليبيًا أخذ مني الأجرة حتى مصراتة مؤكدًا علي أنه سيوصلني إلى هناك، وعند إجدابيا قبل مصراتة بسبعمائة كيلومتر تقريبًا أنزلني وأعطاني خمسة عشر دينارًا لأركب بها إلى مصراتة، **وقال لي**: العربة تعطلت، كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، والطريق خال ولم أر إلا شعاعًا صادرًا من فندق متهالك قذر، فاضطررت للذهاب إليه وسؤال العاملين فيه عن عربة توصلني إلى مصراتة فنصحوني بانتظار الصباح، فحجزت حجرة لأنام فيها حتى الصباح.

لم أستطع النوم، فللحجرة باب هش من الخشب الحبيبي، والنافذة ليس لها باب وإنما موضوع عليها ستارة، ودورة المياه ليس لها باب، تشعر وأنت في هذه الحجرة كأنك نائم في الطريق العام، أما السرير فكان قذرًا، أخرجت من حقيبتي فوطة، ووضعتها على الوسادة لأستطيع وضع رأسي عليها، ووضعت ما معي من مال وجواز السفر والتصريح تحت الوسادة لأطمئن عليها من السرقة، حاولت النوم بلا فائدة، في الصباح الباكر ركبت سيارة أجرة إلى مصراتة، أعطيت السائق الخمسة عشر دينارًا كما قال لي السائق السابق فرفض وصمم على أن الأجرة عشرون دينارًا، اتصلت بمصطفى لأسأله عن مكان العمل، وجعلت السائق يحدثه على

الهاتف فأعطاه العنوان، فلف السائق عدة لفات ثم أوقفني في نفس المكان الذي كنا فيه وأشار على الشركة بيده، وأخذ مني دينارًا.

كانت الشركة على الطريق السريع، في مكان خال من السكان، وهي شركة للنقل، كانت عبارة عن مكان واسع مسور بالحديد، وعلى بابه الحديدي يقف رجلان عملاقان مخيفان من النيجر سود الوجوه وبوجوههما شُرُط عميقة عددها رمز للقبيلة التي ينتمون إليها، أخبرتهما باسمي، ففتحا الباب وكان ذا صرير مزعج، كان الوقت ليلًا، فاتصلت بمصطفى فأخبرني بأن أنام في الحاوية القريبة من الباب الحديدي، وفي الصباح سيأتي ويبين لي طبيعة العمل، وعرفت منه لأول مرة إنه ينام عند أخته المقيمة في ليبيا مع زوجها، وكانت مفاجأة لي، دخلت الحاوية التي دلني عليها، والتي استخدمت كحجرة، قرعت الباب الذي كان نصف مفتوح، ودخلت فرأيت رجلًا في العقد الخامس من العمر وشابًا في مثل عمري، تكلم الأكبر سنًا وكأنه يعرفني منذ زمن:

كيف حالك يا أخ؟

كان غليظ الشكل ملامحه كبيرة، أسمر، اسمه **عبد العال**، ويعمل سائق بلدوزر، نصحني عدة نصائح عن البلد والليبيين، فسألته:

منذ كم سنة وأنت هنا؟

ضحك ضحكة عالية، **وقال:**

منذ أمس.

فابتسمت فلقد كان ينصحني وكأنه عاش هنا دهرًا، أما الآخر فكان اسمه **زيادًا** ويعمل سمكري سيارات في الورشة، **دعاني** على العشاء المكون من جبن وباذنجان مقلي، وأخبراني أن واجب الضيافة ثلاثة أيام عليهما، سألتهما عن سريري، ولم يكن في الحجرة الصغيرة سوى سريرين، **فقالا:**

لا يوجد سرير لك.

فنمت على الأرض، في الصباح استيقظت على صوت صرير باب الشركة المزعج، ذهبت إلى دورة المياه وبمجرد دخولي خرجت منها؛ فلقد كانت مقززة ورائحتها عفنة؛ اتصلت بمصطفى أستعجله في المجيء، وسألته عن دورة مياه نظيفة فدلني على دورة مياه نظيفة بجانب مكاتب الإدارة، سألته عن حجرة أخرى بها أناس متعلمون أستطيع التفاهم معهم، **فقال لي:**

لا يوجد غير العمال والسائقين الآن.

تعرفت على مدير الحسابات **عمر**، كان ليبيًا نحيفًا معتدل الطول أسمر، ويبدو في الثلاثين من العمر تقريبًا، طلب عمر مني بعض الأعمال الحسابية وعرض للأسعار، فأنجزت ما طلب مني فسعد جدًا بي، وخصص لي حجرة صغيرة بها جهاز كمبيوتر، وتستخدم كمخزن في نفس الوقت، فكانت مكدسة ببعض الصناديق، كان عمر كريمًا معي وكان يدعوني على الإفطار كل يوم، فكنت أفطر معه، وبعد الإفطار أذهب إلى دورة المياه مباشرة بسبب الإسهال، حتى علمت السبب، فقد كان مغرمًا بوضع الشطة في الطعام، ولكني لم أحرجه وأصبحت أدعوه أنا بعد ذلك إلى الإفطار، كان عمر يحب المصريين، فقد كانت زوجته مصرية تعرف عليها وهو يدرس في الجامعة بمصر، وكانت من عائلة طيبة جعلته يحب كل المصريين، **كان يقول لي دائمًا:**

إذا أردت الزواج من امرأة تدللك فتزوج المصرية، أما إذا أردت الزواج من امرأة تغمك فتزوج ليبية، وإذا أردت امرأة تعلفك تزوج المغربية.

بعد ذلك تعرفت على **مازن** ابن أخت صاحب الشركة ويعمل بالإدارة، كانت مهمته معرفة كل صغيرة وكبيرة عن العاملين في الشركة، كان العمل يبدأ في الثامنة صباحًا حتى الثانية، ومن الرابعة

حتى الثامنة ليلًا وأحيانًا حتى العاشرة، ونصحني مصطفى بعدم الخروج ليلًا حتى لا أتعرض للتثبيت والسرقة، لذلك كنت أشتري طعامي مرة واحدة يوم الجمعة، أصلي صلاة الجمعة في البلد التي تبعد عن الشركة بثلث ساعة بالعربة، ثم أشتري احتياجاتي، كان صاحب الشركة يعطيني مصروفًا بسيطًا للطعام كل أسبوع، أما مرتبي فقد وعدني به قبل سفري بساعة، وكل شيء بإذن، يعني إذا أردت شراء ملابس أستأذن وينزل معي مازن من الإدارة ليتأكد أنني سأشتري ملابس، إذا أردت إرسال بعض المال لأمي أستأذن وينزل معي مازن ليحولها لي من البنك، وبرغم المرتب الكبير الذي سأحصل عليه كنت أشعر أنني أعيش في سجن، فمعنى ذلك أنني لن أشتري بضاعة أتاجر فيها.

أول طعام اشتريته وضعته في الثلاجة، كان يوجد مطبخ مخصصًا للعمال، فيه ثلاجة للأربعين عاملًا، وموقد بعينين إحداهما لا تعمل، ودورة مياه واحدة، أول طعام وضعته في الثلاجة لأنني خشيت عليه من حرارة الحجرة العالية، سُرق، فداومت على شراء المعلبات والأطعمة التي لا تحتاج إلى ثلاجة.

اكتشفت بعد ذلك أن زياد يعاني من مرض الوساوس، فلقد اتهمني عدة مرات بالشرب من زجاجة المياه الخاصة به، أو أكل بعض طعامه، وذات مرة استيقظت من نومي على ضجيج وأصوات عالية، ففتحت عيني لأجد زيادًا ممسكًا بتلابيب عبد العال ورافعًا عليه مدية قرن غزال متهمًا إياه بأخذ سيجارة من علبة سجائره، **وقال له:**

إبراهيم لا يدخن إلا المارلبورو، إذن فلم يبق إلا أنت.

حاولت تهدئة الموقف بلا فائدة، واتهمه عبد العال بالجنون، كان الوقت بعد منتصف الليل، تجمع بعض العمال على أصواتهما، وأعطى أحد العمال كبار السن زيادًا علبة سجائر، لكنه رفضها **وقال:**

أريد سيجارتي التي أخذها اللص.

في اليوم التالي وأنا عائد إلى حجرتي الغير مريحة بمن فيها كنت مشغول الفكر في طريقة تبعدني عن هذه الصحبة وهذه الحجرة، فلم أنتبه ودخلت حجرة أخرى غير حجرتي، وبمجرد ما فتحت الباب رأيت دخانًا كثيفًا يخرج من الغرفة وسمعت صوتًا أجش يصرخ **قائلًا:**

يخرب بيتك، أغلق الباب، سيطير الدخان.

فأغلقت الباب بسرعة وانصرفت، علمت بعد ذلك من مصطفى أن بعض العمال يحششون في وقت الراحة.

علم صاحب الشركة بما حدث من زياد وتهديده لزميله بالمدية فطرده من العمل، كانت كل حاوية بها عمال من نفس الجنسية، فبعض الحاويات فيها مصريون وأخرى سودانيون وأخرى من النيجر وأخرى سوريون، تعرفت على عامل سوري طيب وأحببته حبًا جمًا كان اسمه **أبا محمود**، وأصبحت أتناول معه الشاي بعد العمل في حجرته كل يوم، ولم يكن يدخن لذلك لم أدخن أبدًا في حجرته، ثم أتى عاملان إلى حاويتي مصريان، ولم أستطع النوم على الأرض مع آخر، فأخذت بطانية ونمت في صندوق إحدى العربات، كان الجو حارًا في أغسطس ولكنني غطيت نفسي بالبطانية خوفًا من الناموس والبعوض، نمت على أصوات الفئران طوال الليل، عندما قمت في الصباح أصدرت أصواتًا لكي تبتعد الفئران وتفر، ولكن الفئران هنا غبية، فهي إما تجري فتصطدم بك وإما تنظر إليك في بلاهة، ومن سمنها تجري ببطء كأنها تتدحرج وتميل إلى جانبها، شكوت لصاحب الشركة من كثرتها فأوصى بعض العمال بوضع سم لها.

الحُلْم الغريب

نزلت يوم الجمعة في مركز للكمبيوتر وكلمت عليًا أخي فعرفت منه أنه أخذ إعفاء من الجيش لإصابته بفلات فوت (القدم المسطحة)، ففرحت من أجله وأجلي، وأخبرني أنه قدم في أحد المدارس ليعمل مدرس رياضيات، وطمأنني أنه يهتم بالمحل، في المرة التالية عندما كلمته أخبرني أن موظفة الضرائب مرت عليه وأرادت شراء بعض البضائع بربع الثمن فرفض فكتبت تقريرًا كبيرًا عن ضرائب المحل، فقدم فيها شكوى لرئيسها في العمل، ولكنه اشتكى من قلة الربح وخاصة أنه يدفع إيجارًا للمحل، ثم واساني **بقوله:**

أعدك يا أخي أنني سأعمل مدرس رياضيات وسأعطي دروسًا خصوصية، وسأشاركك في شراء محل يكون ملكًا لنا.

اضطررت إلى إرسال بعض المال لهم بعد طلب ذلك من صاحب الشركة، كنت أشعر بالحرج وأنا أشكو له من سوء ظروف أهلي.

استيقظت ذات ليلة على ألم فظيع فلقد شعرت بأسنان تنغرس في قدمي، فصرخت ونظرت إلى قدمي فرأيت على النور الخافت دمًا فأيقنت أن فأرًا عضني، استغثت بعبد العال بسرعة ليوصلني للمستشفى، **فقام وهو يقول لي:**

هذا ما جنيته على نفسك، ما الذي يجعلك تنام في الخارج، مالها الحجرة؟ جميلة وواسعة، ثم تعثر في قدم العامل النائم على الأرض فلعنه ولعن العمل وزوجته وأهله وعياله وليبيا ومصر والحياة كلها وخرج معي، وطوال الطريق لم يكف عن الكلام.

كنت خائفًا من سريان السم فربطت إحدى ملابسي بجانب مكان العضة، ووصلنا المستشفى وأعطوا لي حقنة، وشاع الخبر في الشركة وخاف العمال وأسرعوا بشراء سم الفئران واشتروا كمية كبيرة من الطماطم لوضعه فيها.

أعطاني المدير يومًا إجازة لأرتاح فيه مما عانيت، فاستغللت هذه الفرصة وكلمت أخي عليًا عن طريق النت لأعرف أخبار أمي وأختي، واتصلت بهما على الهاتف لأسمع صوتهم، وأطمئن عليهم.

بعد عدة أيام استيقظت على رائحة كريهة تبعث على الغثيان، نظرت تحت العربة التي أنام عليها فرأيت أكوامًا من الفئران الميتة، لقد وضع العمال الطماطم السامة كلها تحت عربتي لإكرامي، فماتت كل الفئران وتعفنت، ولم أتمالك نفسي فلقد تقيأت عصارة بطني، وأخبرت عمر، فأرسل العمال ليطهروا المكان بالمطهرات، طلبت من

صاحب الشركة إجازة لمدة أسبوع فقط فرفض، وقال إن الإجازات لا يعطيها إلا بعد سنة على الأقل، شعرت بالإحباط والاكتئاب، ولكن أبام حمود السوري هون علي الأمر بكلامه الجميل، فلقد سهرت معه هذه الليلة على كوب من الشاي، وأوصاني بالصبر، كان يكبرني كثيرًا بحوالي عشرين سنة، ولكن أخلاقه كانت طيبة، انقطعت صلتي بحجرتي تمامًا، فأصبحت أنام وحدي في صندوق العربة وأسهر ليلًا في حجرة السوريين، ويوم الجمعة أقضيه مع مصطفى، وأحيانًا كان يدعوني فيه في بيت أخته، وهناك رأيت ابنة أخته أميرة، كانت خمرية اللون، رقيقة الملامح، جميلة، فشعرت بإعجاب نحوها، وكانت في الثامنة عشرة من عمرها وأنا كنت في التاسعة والعشرين، فتمنيت لو أخطبها ولكنني ترددت، وقلت لنفسي أنتظر حتى أكون مستقبلي، وتكون لي شقة على الأقل، فلا داعي للإحراج.

بعد ذلك دعاني زوج أخت مصطفى عدة مرات على الغداء يوم الجمعة، وتوطدت العلاقة بيني وبينهم، ثم دعاني خارج البيت على شاطئ البحر على وجبة من الأسماك، ثم دعوتهم أنا بدوري مرة أخرى، وقالت أخته أنها تحب الزواج المبكر للفتيات وخاصة

الحُلْم الغريب

بعد انتشار الزواج العرفي وما إلى ذلك، وتحدثنا في موضوعات كثيرة عن المصريين والليبيين والعرب، وفي اليوم التالي في العمل لمح لي مصطفى بأن أخطب ابنة أخته، فتشجعت وأخبرته بظروفي، وظروف عائلتي، فشجعني وقال لي أهم شيء الأخلاق والرجولة، والرزق بيد الله مما أثلج صدري، وانتظرت رد والدها وأنا متفائل خيرًا، فبرغم حظي التعس كلما لاحت لي بادرة أمل أنسى كل ما عانيته وأعيش الحلم الجديد بفرح، فظللت عدة أيام أمني نفسي بالخير، ورأيت كل التعب في عملي اليومي مجرد تعب عادي من أجل لقمة العيش، ورأيت الأحداث كلها التي مررت بها أحداثًا كوميدية، وبدأت أهتم بمظهري أكثر، وأبتسم وأمزح مع زملائي أكثر من المعتاد، وأخذت أستعيد كلام والد أميرة لي وأمها، ترحيبهما بي وحفاوتهما، دعوتي على الغداء، ابتسامة أميرة لي عندما فتحت لي الباب ذات مرة، عشت أحلم بالسعادة مع ذلك الوجه البريء حتى جاءني رد والدها الغريب، **فلقد قال له:** سننتظره حتى يكون نفسه، مهلة لمدة عامين بدون أية ارتباطات، فإذا استطعت شراء شقة أو دفع مقدمة شقة على الأقل لضمان المستقبل من الممكن عمل خطوبة، لم يكن الكلام مشجعًا لأن معناه لو تقدم أحد غيري ظروفه جيدة سترتبط به، فامتنعت عن زيارتهم، ووعدته بأنني سأحاول عمل شيء وكل شيء قسمة ونصيب.

أحسست بيد توضع على كتفي **وسمعت صوتًا يقول:**

أنت مقبوض عليك، ستذهب حالًا إلى الشرطة.

نظرت خلفي لأراه رأيت رجلًا يصوب ناحيتي مسدسًا، فسألته:

لم؟

لقد رأيتك وأنت تكتب لأخيك وتشتم في الليبيين.

ففهمت الموضوع، إنه كان يتجسس على ما أكتب من كمبيوتر آخر، وأنا جالس في المركز، طلبت منه أن يمهلني حتى أتصل بمن أعمل عنده، فسمح لي فاتصلت بعمر.

حدث هذا يوم الجمعة، كان اليوم لا يعلم به إلا الله من أول ما صحوت، بحثت عن ملابسي التي غسلتها في اليوم السابق ونشرتها فلم أجدها بالكامل، لقد سرقت، فتضايقت واتصلت بمصطفى مضطرًا وطلبت منه شراء سروالًا لي وقميصًا حتى أستطيع الخروج، وبالفعل كان كريمًا معي ولم يتأخر عني، وعندما شكرته **قال لي:**

لا أنسى أبدًا زيارتك لي ووقوفك بجانبي عندما توفى أبي رحمه الله.

صليت الجمعة وذهبت إلى مركز الكمبيوتر، وكلمت أخي عليًا وسببت في الليبيين وقلت له إنهم أغبياء جهلة، فقد كنت

متضايقًا من صاحب الشركة وعدم موافقته على السماح لي بإجازة، وكنت متعبًا من كل شيء، فرأى هذا الليبي ما أكتب، لم أكن أعرف وجود رجل أمن ويتجسس على رواد مركز كمبيوتر!

أتى عمر بسرعة، فانتحى جانبًا معه وكلمه كلامًا ثم فوجئت بعمر لأول مرة ينهرني ويأمرني بغضب:

انتظرني هناك عند السيارة، خرجت إلى سيارته، ثم لحق بي، ودخل وأمرني بالركوب وهو غاضب وأول ما ابتعدنا من المركز انفجر في الضحك، **وقال لي:** أعرف أنكم المصريين طيبون وتحبون السخرية حتى من أنفسكم، لو لم آتِ إليك لدخلت السجن إلى الأبد. **قلت له في الطريق:**

نحن في مصر طوال النهار وطوال الليل في العمل والبيوت والمقاهي والتليفونات نشتم الحكومة براحتنا، ولا يحدث لنا مثل هذا.

حمدت الله على ما حدث ولكنني صممت على الرحيل، فقد شعرت بالاختناق، فهذا الموقف كان القشة التي قصمت ظهر البعير، سألت أبا محمود عن كيفية الهرب من هذا السجن، فبرغم

حبي لعمر لا أستطيع مفاتحته في نيتي عن الهرب، فهو ليبي أولًا وأخيرًا ولن يخون مواطنًا مثله كما أخبرني أبو محمود، فنصحني أبو محمود بالصبر حتى أكمل السنة وأرحل، وحذرني من إظهار رغبتي في ترك العمل؛ فصاحب العمل يرى من يتركه قد جرح كرامته جرحًا عظيمًا ربما يعرضه للانتقام، ولكنني لم أحتمل، ولم يعد أمامي إلا طريقة واحدة، فقد طلبت من عمر أن يكلم صاحب الشركة بأن آخذ إجازة لمدة أسبوع وأعده بالعودة ولا أعود، وبالفعل أخذت جواز سفري ومرتبي وعدت إلى بلدي.

عدت إلى الاسكندرية، عندما وصلت كان الوقت ليلًا، اطمأننت على أسرتي، وسهرت معهم وتبادلنا الأحاديث، في اليوم التالي استيقظت فجرًا، وبعدما صليت الفجر بنصف ساعة، ذهبت إلى شاطئ البحر، كان بيت أسرتي في كليوباترا، سرت على الشاطئ من كليوباترا حتى المندرة، وكنت أتوقف بين وقت وآخر أتأمل البحر وأملأ صدري بنسيمه، وكأنني كنت سجينًا أطلق سراحه، كنت أشتاق بشدة إلى البحر ورائحة نسيمه، وعندما أشرقت الشمس جلست أتأمل لحظة الشروق وانبلاج النور.

جلست على الرمال ومددت ساقي، واستلقيت على الأرض، وغلبني النعاس بسرعة، لم أستيقظ إلا عندما اشتدت الشمس وقت الظهيرة، فاقتربت من شاطئ البحر وغسلت وجهي، وأحسست بسعادة غامرة وأنا أراقب الموج وطيور النورس المحلقة قرب الشاطئ، كم اشتقت إشلى كل هذه الأشياء الجميلة.

في اليوم التالي ذهبت إلى المحل وفتحته، واتصلت بصاحبه ودفعت إيجاره، ونظفت المحل وصممت فيه ديكورات جديدة وجددته، بعد عدة أشهر انتهى عقد الإيجار، فطلبت من صاحب المحل تجديد العقد فصمم على زيادة الإيجار، **قلت لنفسي**: ولم لا؟ فأنا عائد من السفر، فلم أستطع الصمود طويلًا أمامه وخاصة أنني أنفقت عليه الكثير في تجديده.

لاحظت هذه الأيام كثرة تردد فاطمة على المحل وشراءها بعض الملابس، واهتمامها بنفسها أكثر من المعتاد، ولاحظت أيضًا سهرها على الكمبيوتر فترات طويلة، فحرصت على الحديث معها لعلها تتكلم معي وأستطيع مساعدتها، ولكنها كانت غير محتاجة لكلامي، فكلما جلست معها كانت تذهب لتنام أو تستذكر دروسها. عدت

إلى البيت ذلك اليوم فوجدت فاطمة وأمي يتشاجران، لقد تقدم لها عريس وهي ترفض الجلوس معه، فلقد اتصلت **نشوى** زميلتها في الجامعة بها وسألت أمي عن تحديد موعد لمجيء العريس وهو قريبها، وأخبرتها بمواصفاته، كانت به كل المواصفات التي تتمناها أمي فهو أشقر، شعره أصفر وعيونه خضراء، ولديه شقة، ويعمل طبيبًا بيطريًا، وكان من أسرة طيبة وعلى خلق، وتأكدت من هذه المعلومات بالسؤال عنه في كل مكان في عمله وبين جيرانه بعد ذلك.

ولكن أمي أقنعتها بأن تجلس معه وتتعرف عليه وإلا فكيف ستتزوج؟ كانت قصة هذا العريس غريبة فلقد رأت أمه فاطمة في سيارة أجرة، كانت تجلس بجانبها وعندما أعجبتها سألتها عن دراستها فعرفت أنها في كلية الفنون الجميلة، فأخبرتها أن لها قريبة معها في دفعتها وأخبرتها باسمها وهي نشوى، وعرفت أم جلال اسمها أيضًا، بعد ذلك تقدمت لخطبتها لابنها **جلال**.

عندما جلست معه فاطمة رفضته بشدة **وقالت:**

أشعر أنه أتى ليتزوج لأنه لابد أن يتزوج، أشعر أنه ليس معي تمامًا، وأنا غير مستريحة في وجوده، أشعر بكهرباء في الجو وذبذبات تجعلني مضطربة.

فقالت لها أمي:

ما هذه التخاريف التي تقولينها؟ وما معني هذه الذبذ...

ولم تستطع أن تنطقها، ثم وبختها بشدة:

البنات العوانس كثيرات بسبب هذا الكلام الفارغ.

وعندما صممت فاطمة على الرفض بكت أمي، **وقالت لها:**

أريد أن أفرح مرة واحدة في حياتي، أعطه فرصة وفي الخطوبة لو تأكدت من أنه غير مريح فلن أعارضك.

انشغلت أمي في شراء جهازها، كنت أدفع كل ما أكسبه من أجل جهاز فاطمة، وطلبت أمي من علي المساهمة أيضًا **قائلة له:**

هي أخت واحدة فقط فجهزوها أحسن جهاز حتى يحترمها زوجها وأهله.

وصممت فاطمة أن تقام حفلة خطوبتها في قاعة، وعندما ظهر على وجهي بعض الضيق **قالت أمي:**

إنها أخت واحدة فقط.

وذكرتني بالأجر العظيم الذي ينتظرني عند الله.

كانت فرحة أمي لا توصف بجلال، أما فاطمة فتقبلت العريس تحت إلحاح أمي، وفرحت بالشبكة والحفلة والفستان وحلمت أنه ربما يسعدها ويخيب ظنها، وحمدت أمي الله كثيرًا على تحقق أمنيتها؛ فالعريس جميل والعروسة أيضًا، وأحفادها سيكونون بهذا الجمال.

وعندما هنأ الأقارب فاطمة وأقبلت عليها صاحباتها **يقلن لها:** ما هذا الجمال؟ العريس وسيم جدًا، العقبى لنا، بدأت تنسى ضيقها وتنفرج أسارير وجهها.

تأملت العريس لم يبد عليه أي عيب، وكل ما في الأمر هو إحساس فاطمة فقط تجاهه، والإحساس لا يخطيء فربما أحب فتاة من قبل ولا يستطيع نسيانها كشباب كثيرين في عصر الانفتاح على الجنس الآخر، ولكنني أتفاءل خيرًا ففاطمة طيبة وإن شاء الله سيحبها وإلا فلماذا فكر في الخطوبة والزواج؟

نظرت إلى فاطمة بعد منتصف الحفل وكانت صاحباتها يرقصن حولها وبعض المدعوين مما جعل وجهها يتهلل بالفرحة، **قلت في نفسي:** هذا حظ فاطمة فهي طيبة وتستحق كل خير، وتذكرت

عندما كانت تقبل يد أبي وتحنو عليه بكلمات طيبة مشجعة، فطالما **قالت له:**

أنت أحلى أب في الدنيا، لولاك لما تعلمت هذا التعليم.

قالت له ذلك عندما تزوجت صديقتها في الفصل الإعدادي من رجل عجوز عربي، باعها أبوها له لقاء مبلغ تافه أنفقه في شهر وتركت هذه الفتاة تعليمها مع أنها كانت متفوقة، لا أنسى أبدًا عندما عرضت أمي على أبي هذه الفكرة حكت له ما حدث لزميلة فاطمة **ثم قالت له:**

لماذا لا تفعل ذلك مع فاطمة؟

فثار أبي وغضب، واتهمها بالجنون، ولعن ذلك اليوم الذي تزوجها فيه، وقالت فاطمة لأبي إنه أحلى أب عندما رأت عربة بوليس ممتلئة بفتيات منحرفات مقبوض عليهن، قالت له ذلك وقبلت يده، وقالت له ذلك عندما رأت زميلة لها في الجامعة يداها كانتا خشنتين من أثر العمل في الصيف، أما فاطمة فقد كانت يداها تلمعان كاللؤلؤ، فلم يكن أبي ليرضى أبدًا أن تعمل الفتيات، أما هو فقد كانت يداه مسودتان من كثرة العمل، رغم أنه كان أبيض ككل أفراد العائلة، أما أنا فقد كنت أرد عليه أحيانًا، كنت أنتقم منه لما

فعلته أمي بي وأنا صغير، فأنا لا أستطيع توبيخها فهي تحزن من أقل شيء وقد تدعو علي، أما أبي فكان **يقول لي:**

فليسامحك الله يا بني، هكذا كنت مع أبي.

نزلت دمعة على خدي رغمًا عني حزنًا على أبي.

في حفلة الخطبة رأت فاطمة زميلتها نشوى، فقد كانت نشوى معها في الجامعة، ولكنها لم تكن على علاقة وطيدة معها، ولكن بعد أن عرفت أنها ابنة عم العريس توطدت العلاقة بينهما، وأصبحتا صديقتين حميمتين، أما زوجة خالي فكانت تنظر إلى العريس وهي متعجبة **ثم قالت لي مازحة:**

من أين أتيتم بهذا العريس فهو مثل ما تمنت أمك على التمام والكمال، هل فصلتموه؟ ثم نظرت بحسرة إلى زوج إحدى بناتها ولم يكن وسيمًا.

بعد الخطبة داومت فاطمة على الحديث مع جلال يوميًا على جهاز الكمبيوتر، أو تليفونيًا، وبدأت تقنع نفسها به وتفرح به فهو أول شاب في حياتها، أما هو فقد لاحظت فتوره وخاصة في الآونة

الأخيرة ولكنني لم أتكلم، لم أرد أن أضيع على أمي وفاطمة فرحتهما، قلت في نفسي حتى لو فشلت هذه الخطبة فمن المؤكد أن فاطمة سوف تتعلم شيئًا.

انشغل علي في الدروس الخاصة، فقد عين في مدرسة كمدرس رياضيات، وساعد كثيرًا في جهاز فاطمة، وكل ما كسبته في هذه الفترة دفعته في جهازها، سافرت معها دمياط مرتين لشراء الأثاث الذي تريده، واستغللت وجودنا في دمياط لأول مرة لمشاهدة ملتقى نهر النيل بالبحر، كان المشهد مهيبًا، ولكننا لم نمكث للتأمل إلا عدة دقائق لضيق الوقت، وقضينا اليوم كله في التنقل بين المعارض لاختيار الأثاث، وبعد العودة انشغلت أمي معها كل يوم في فرش الشقة، كانت السنة كلها يسودها الفرح بسبب هذه المناسبة السعيدة، طلبت أمي مني دعوة أخيها توفيق على فرح فاطمة الذي حددناه، فاتصلت بخالي وأخبرته، فبارك لي وفرح من أجلها، ولكنني سمعت زوجته وهي جالسة بجانبه وتقول:

دنيا عجيبة.

لا أعرف ما الذي تريده هذه المرأة منا؟ هل تريد أن يمزقنا الله ويعذبنا؟ كل ذلك بسبب تعليمنا الجامعي؟!

الحُلْم الغريب

قبل الفرح بيومين اتصل جلال بأمي وأخبرها أنه سيأتي بالثلاجة في ذلك اليوم، كانت أمي موجودة في شقة فاطمة تضع اللمسات الأخيرة في الشقة ومعها فاطمة، عندما اتصل بها جلال وأخبرها بأنه في الطريق فرحت وقبلت فاطمة، وباركت لها، وقرأت المعوذتين خوفًا من عين الحاسدين، ولكن عندما أتى جلال بالثلاجة بهتت أمي، لقد أحضر ثلاجة قديمة صدئة متآكلة مقززة، **فقالت له:**

لا لا يمكن، يا بني، هذه لا تصلح لعروس لم تتزوج من قبل.

فدفع الثلاجة بيده، **وقال لها:**

هذه استطاعتي، من لا يعجبه فليأت بغيرها.

وتركت أمي وفاطمة البيت وانصرفا، ولم يتصل بنا جلال، اتصلت به فاطمة تخبره أنه ضخم الموضوع، ومن الممكن أن يدفع نصف ثمن الثلاجة ونحن ندفع النصف الآخر، ولكنه صمم على الزواج بهذه الثلاجة، شعرت فاطمة بأن جلال يريد أن يتركها ويتحجج بفكرة الثلاجة، فلقد تشاجرا من قبل وكان يصالحها، فلم تتصل به وشعرت أن كرامتها جرحت عندما لم يتصل بهم مرة أخرى، ولكنني بعدها بعدة أيام كنت نائمًا ولكني لم أكن مستغرقًا في النوم فسمعت أمي تحدثه في الهاتف وتلح عليه بالصلح، فقمت من

النوم وأنا غاضب؛ ووبخت أمي على اتصالها به، وذهبت في نفس اليوم ومعي فاطمة ونقلنا كل ما اشتريناه في شقتها إلى شقتنا، كان موقفًا مخزيًا أمام الجيران والأقارب الذين دعوناهم، ولم يرقأ لأمي دمع، فلقد أحست أنها السبب، وندمت على أنها قالت لجلال ما قالته عن الثلاجة، **قالت لي:**

ليتني سكت واشتريت أخرى جديدة وانتهى الموضوع.

فقلت لأمي:

على العكس هذا أفضل فهو يتحجج ولا يصلح زواج بالإجبار، لقد غير رأيه لسبب ما، والحمد لله إنها لم تتزوجه.

ظلت أمي حزينة وفاطمة مجروحة حتى أتت نشوى صديقتها وأخبرتها بالحقيقة، **قالت لها:**

لقد عاد جلال لحبيبته وزميلته في العمل التي رفضه أبوها لعدم تكافؤ الأسرتين، مات أبوها منذ فترة قريبة فاتصلت به، وعادت العلاقة بينهما.

ارتاحت أمي لسماع هذا الخبر وباركت لفاطمة أن الزواج لم يتم، لاحظت بعدها أن أمي كفت عن تمني أحفادًا شقرًا، بل على العكس لقد كنا ذات مرة نشاهد في إحدى القنوات الفضائية صلاة

التراويح في الحرم النبوي وكان الإمام أسمر، **فقالت أمي**: يارب أحفادي يكونوا أتقياء مثل هذا الرجل.

ولم أسمعها بعد ذلك أبدًا تذكر البياض ولا العيون الزرقاء.

تخرجت فاطمة من الجامعة، وحضرت وأمي حفل التخرج، أقيم في قاعة حفلات كبيرة في سان ستافانو، كانت الحفلة مبهجة، عندما نودي على اسم فاطمة لتستلم شهادتها وكان تقديرها جيد جدًا مع مرتبة الشرف تذكرت أبي فبكيت، فلو كان حيًا لسعد بهذه اللحظة، نظرت إلى أمي رأيتها تبكي أيضًا فنظرت إليها بإشفاق، ففوجئت بها **تقول لي**:

أبي لم يعلّمني، كنت أتمنى لو تعلّمت!

بحثت فاطمة عن عمل في إحدى المدارس، فعملت شهرًا واحدًا بدون أجر ففضلت الجلوس في البيت، فطلبت منها أن تدرس في الجامعة دراسات عليا، فقدمت لذلك وأنهت السنة التمهيدية للماجستير وكان ترتيبها الأول، ثم أعدّت خطة الموضوع وكان الموضوع عن الفن الإسلامي فرفضه الدكتور، كان يريدها أن تغير الموضوع الذي اختارته، فتركت الأمر كله، حاولت إقناعها

بأن تطيعه وبعد أن تنال الماجستير تختار ما تشاء فرفضت هذا المبدأ، لم أكن أريدها تجلس في البيت فريسة للوحدة والتفكير في تجربتها السابقة، فطلبت منها رسم لوحات ووعدتها بأنني سأساعدها في عرض هذه اللوحات، كانت يد فاطمة ماهرة وخاصة في اللوحات الطبيعية، **فقالت لي:**

لا يوجد فن الآن، وكل ما هو موجود رش خليط من الألوان على اللوحات!

اشترى **علي** شقة صغيرة في العجمي، ووعدني بعد زواجه أنه سيشاركني في العمل حتى يكبر، وكنت قد ادخرت مبلغًا من المال يكفي لمقدمة شقة، وحلمت بعد كتابة العقد بخطوبة أميرة ابنة أخت مصطفى فهي لم تخطب بعد، برغم مرور ثلاث سنوات، ولم أنقطع عن معرفة أخبارها من مصطفى، في هذه الليلة حلمت **بصوت يقول لي:** بعد موت أمك ستُحل كل المشاكل، نفثت على شمالي ثلاث مرات واستعذت بالله من الشيطان الرجيم، فالمال معي وعقد الشقة سيكتب اليوم، وسأخطب أميرة اليوم أيضًا وأبشر والدها، وفي نفس ذلك اليوم وبعدما ارتديت ملابسي، سمعت صرخة أمي وأنا أتعطر، فوضعت زجاجة العطر على المنضدة، وأسرعت لأراها

كانت ملقاة على الأرض تتلوى، فاستدعيت لها طبيبًا في المنزل فحالتها لم تكن تسمح بالخروج، وأعطاها الطبيب مسكنًا وطلب بعض التحاليل، وانشغلت لعمل هذه التحاليل، ودفعت فيها ألف جنيه، واعتذرت لصاحب الشقة فقد توقعت مرضًا لعينًا أصاب أمي، ومن سيعالجها غيري؟

وبالفعل كان السرطان، وبدأت رحلة العلاج، وكنت أنا وعلي نتعاون معًا لدفع ثمن العلاج الباهظ، ونسيت أمر الشقة، ورن في أذني كلام زوجة خالي فشعرت باليأس والإحباط وعدم جدوى الحياة، فكلما أفعل شيئًا يفشل، وإذا اقتربت من عمل شيء يفيدني ينتهي إلى الفشل، فقدت الثقة في كل أمل في الحياة حتى رغبت في الموت، أصبحت أحسد الأموات وهم في طريقهم إلى القبور، وحسدت المساجين الذين يعيشون بلا أمل، فالأمل يجعلك طائرًا في السماء ثم في لحظة وبدون سابق إنذار تقع على الأرض.

ذهبت إلى مسجد الرحمة القريب من بيتي لأسأل **الشيخ سيد** عما يحدث لي، كان مكتب الشيخ سيد ملحقًا بالمسجد الكبير، وكان للمسجد جمعية وأعضاء وكانوا يأخذون التبرعات من الناس

وينفقونها على الفقراء والمحتاجين، كان الشيخ سيد هادئًا مبتسمًا دائمًا كما عهدته منذ رأيته وأنا أصلي في المسجد أيام الجمع، جلست في مكتبه لأسأله فدخلت امرأة يبدو عليها الفقر والحاجة، طلبت منه مساعدة، كان معها طفل صغير، فأعطاها ورقة وقلمًا وطلب منها أن تكتب بياناتها حتى يبحث حالتها، وهي خارجة من الحجرة خرجت وراءها ومددت يدي إليها بطريقة خفية وأعطيتها عشرين جنيهًا، ثم عدت إلى الشيخ الذي رحب بي وقبل أن أتكلم دخلت امرأة أخرى أنيقة الملبس تضع بعض المساحيق الخفيفة على وجهها، وواثقة في نفسها، سألها عن أحوالها؛ يبدو أنه يعرفها جيدًا، ثم أعطته كشف نظارة، **وقالت له:** أريد نظارة لابني بهذا الكشف، وسعرها بسيط جدًا مائة جنيه فقط، فابتسم الشيخ ابتسامته الهادئة **وقال لها:**

سأشتريها إن شاء الله.

بعد انصرافها سألت الشيخ سيد عن حالي وحال أمي فقال لي:

لاتزر وازرة وزر أخرى، ليس لك شأن بغضب جدتك على أمك، اعمل صالحًا وادعو الله يفرج همك، ولا تشغل بالك بهذه الأمور الغيبية.

فقصصت عليه الرؤيا المتكررة، **فقال لي:**

لعلها أحلام شيطانية، أو من كثرة التفكير.

فقلت له بإصرار وقلق:

إنني لا أفكر في موت أمي أبدًا، إنني أحبها وأشفق عليها.

فقال لي:

الغيب عند الله، وحكمة الله لا نعلمها، والخوض فيها لا يصح وربما تدخل في ذنب كبير، فالله اسمه العدل، وأنت بكلامك هذا تخطئ في ذات الله.

فقلت له: لاخلاف في أن الله عادل، ولكن أريد تفسيرًا يقنعني بما يحدث.

لما رآني الشيخ سيد غير مقتنع بإجابته، **قال لي:**

حتى إذا فرج الله همك فعلًا بعد موت أمك فليس معناه بالضرورة أن همومك بسبب وجودها، ولكن ربما رزقك ستناله في هذا الوقت، تمامًا مثل معرفة الله السابقة بما سنفعل من معاصي **فيقول السارق جهلًا:** قدر ومكتوب، وكيف يحاسبنا الله على المكتوب إلا إذا كان لنا الخيار فيه؟

أعجبني هذا الرد وشفى غليلي، وعندما رأى الشيخ سيد علامات الارتياح على وجهي نوعًا ما، **قال لي وهو غاضب:**

ها أنت قد أوقعتني في الخطأ، الله أعلم بحكمته ليس لنا إلا الطاعة والعبادة والرضى بما قسم لنا.

ثم طلب مني أن أشغل نفسي بشيء مفيد بدلًا من التفكير في الأحلام والغيبيات، **وقال لي:**

دع الملك لصاحبه يدبره كيف يشاء، ودعاني لأحضر مجلسه كل يوم اثنين.

يوم الجمعة بعد صلاة الفجر خرجت مع فاطمة وسرنا معًا على شاطئ البحر من بيتنا حتى قلعة قايتباي، كان الطريق طويلًا ولكنني كنت مشفقًا عليها بسبب ما مرت به، فأردت أن تتلهى بالسير، لم تجلس فاطمة في البيت فريسة للفراغ ولكنها تعلمت الكروشيه، وأصبحت تقضي كل يومها في نسج الكروشيه بلا ملل أو كلل، كانت تدخل على مواقع بها نماذج رائعة وتنفذها بمهارة فنانة، نصحتها أن تقلل من ساعات عملها حفاظًا على عينيها بلا فائدة، طلبت منها البحث عن عمل، رفضت **وقالت لي:**

لست مثلك، فأنا أجرب حظي مرة واحدة وإذا فشلت لا أحاول مرة أخرى، لا أفكر في العمل أو الزواج.

ثم قالت:

لا أعلم لماذا حظي نحس هكذا؟

ثم عدنا إلى البيت ونحن في حالة نفسية جيدة.

واظبت على مجلس الشيخ سيد، وبدأت أحفظ القرآن معه، وتعرفت على صحبة طيبة من الشباب والشيوخ، نسأل عن أحوال بعضنا وننصح بعضنا بعضًا، ليست بيننا مصالح دنيوية فكان الحب خالصًا والمودة خالصة، أحيانًا كان ينضم إلينا بعض المنتفعين ولكنهم لم يتحملوا حفظ القرآن، فكانوا يأتون كل فترة ليعلموا مواعيد توزيع الملابس أو الأطعمة التي يتبرع بها أهل الخير.

كنت ألقي على الشيخ ما أحفظه ثم أنصرف قبل انتهاء المجلس لأذهب إلى المحل، سألت الشيخ أن يجعل المجلس يوم الأحد فرفض لارتباطه بمواعيد تحفيظ في أماكن أخرى، وكنت أصاحب أمي دائمًا إلى المستشفى للعلاج الكيميائي، وذات يوم ونحن في الطريق اتصل بي مصطفى يعتذر لي لخطوبة أميرة، **فقلت له:** لاعليك، كل شيء قسمة ونصيب، فبكت أمي بكاء مرًا.

تعودنا على مرض أمي الذي كان في بدايته مفجعًا، وطلبت أمي من علي أن يتزوج ولا يؤجل زواجه وخاصة أنه كان مرتبطًا **بسلمى** زميلته من أيام الجامعة، وكان يكسب كثيرًا من الدروس الخاصة، عندما تقدم لها بعد التخرج رفضه والدها وقابله مقابلة سيئة، فتقدم مرة ثانية لأنها وعدته بعدم الزواج إلا منه، فعلا صوت والدها ووبخه **وقال له:**

أنا تاجر وأعمل في السوق ولا أحب اللف ولا الدوران، أنت أجمل من ابنتي بمراحل، لماذا تريد الزواج منها إلا إذا كنت طامعًا فيما عندها، كان والدها تاجر ثري، **فقال له علي:**

لا أريد منك قرشًا واحدًا، ومستعد أن أوقع على ذلك، وأن أكتب مؤخر صداق كبير حتى تطمئن، كانت سلمى تحب عليًا وكانت أمها أيضًا تحبه وتكلمه في الهاتف أثناء رفض والد سلمى له، وبشرته بأن زوجها سيوافق ولكنه يريد أن يطمئن فقط من نواياه، وطلبت منه أن يتقدم مع عمه أو خاله حتى يتأكد من جديته، وزارهم علي مع خالي توفيق وعمي عبد الهادي زيادة في الاطمئنان، عندما رأى عمي عبد الهادي العروس **قال لعلي في بيتنا بعد عودتهم:**

أهذه التي جعلتني أركب القطار من أجلها؟

كان يمزح معه، فنظر إليه خالي توفيق نظرة عنى بها أن يكف عن هذا الكلام، **ثم قال له خالي:**

مبارك يا بني العروس جميلة.

فاندفع عمي عبد الهادي بتلقائية **وقال له:**

يا منافق، طوال عمرك منافق.

وضحكنا وضحك علي، ولم يبد أنه تأثر بهذا الكلام فهو كان يحبها وفرح بها.

عندما مرضت أمي واسته سلمى ووعدته بمساعدته والوقوف بجانبه في محنته، فتزوج تحت إلحاح أمي وخاصة أن سلمى كانت حنونًا ولم تكلفه كثيرًا، وعندما علمت أمها بمرض أمي ساهمت في تكاليف البيت أكثر مما دفع علي، **وقالت أمي لعلي:**

لعل زواجك بشرى خير لإخوتك.

بعد زواج علي كان يساعدني، ولكن ليس بالقدر السابق وخاصة أن زوجته كانت تعاني من بعض المشاكل في الإنجاب، كانت مصاريف علاج أمي باهظة، فأنا أدخلتها مستشفى خاصًا لم أرد لها العذاب في المستشفيات العامة، ولاحظت على علي بعض

التغيرات مثل شراهته في الطعام، وجلوسه على المقهى في وقت فراغه من العمل، وتدخينه النارجيله.

قدمت شهادة إلى مصلحة الضرائب وفواتير بعلاج أمي وطلبت منهم إعفائي من الضرائب حتى شفاء أمي، فوافقت المصلحة مشكورة، فحمدت الله على ذلك، وواظبت على حفظ القرآن حتى أكملته كله، وأعطاني الشيخ سيد إجازة بتعليم الناس القراءة، وامتنعت عن التدخين تمامًا قبل أن أصل إلى منتصف القرآن، وأطلقت لحيتي، وكونت مجلسًا لي يوم الأحد، وهو يوم إجازتي من المحل، كنت أقرأ تفسير الآيات قبل الذهاب إلى المسجد حتى إذا سألني سائل يجد الإجابة، كنت في البداية أعطي بعض السائلين بعضًا من المال، وأرد آخرين، ولكن بعد مرض أمي لم أرد فقيرًا يسألني أبدًا فكنت أعطيه ولو شيئًا قليلًا، حتى وجدت أشكالًا غريبة تأتي إلى المسجد تطلب مني مالًا، وعلمت بعد مدة طويلة أن أحد مدمني المخدرات كان يحضر مجلسي ليأخذ مني مالًا، وكنت أحسبه مسكينًا حتى أخبرني خبره أحد مرتادي المسجد الصالحين.

الحُلْم الغريب

بدأت أعمال تصليحات وتجديدات في المسجد واسعة، فكان العمال منتشرون في كل مكان، منهم من يطلي الحائط ومنهم من يسد الشقوق ويعالجها، وتم تكسير وهدم سور السلم المؤدي إلى مكان النساء وكان سورًا لا يمنع الرجال من رؤية النساء، وتم بناء سور من الطوب ليمنع رؤيتهم تمامًا، وتم شراء ثريات فاخرة جديدة، وسجادًا، وفي أثناء هذه التجديدات التي تتم بسرعة لقرب شهر رمضان مرض الشيخ سيد؛ فطلب مني أن أشرف على المسجد وأعمال الصيانة التي كان العمال يعملونها في هذا الوقت، وأعطاني كشفًا بالحساب، وطلب مني أن أنوب عنه في مجلسه بعد المغرب يوم الثلاثاء، في الدور الثاني عند النساء، فاعترضت، **فقال لي:**

لا ...لا.... ليسوا بالنساء الذين تتخيلهن، إنهن بعض النسوة ضاقت بهن الحياة فيأتين للترويح عن أنفسهن بسماع كلمتين عن الصبر لتجعلهن يواصلن الحياة، وبالفعل رأيت بعض النسوة كأنهن خرجن للتو من القبور، يعلو على وجوههن الحزن، وكلهن كانوا كبارًا في السن، كان المسجد بالنسبة إليهن بمثابة ناديًا، يثرثرن معًا ويرتحن ببث الشكوى من همومهن، بعد الدرس اشتكت إلي إحداهن من سوء المعيشة ومن قسوة أولادها وعدم زيارتهم لها، فعطفت عليها ببعض المال، وكان هذا القطر الذي يسبق المطر،

فانهلن علي يشكين مشاكلهن، وعندما رآني الحاج ثروت ذات مرة وإحداهن تشكو إلي على باب المسجد حذرني منهن، **وقال لي:**

لقد فتحت على نفسك باب جهنم، فالله أعلم وحده بالناس وربما يستغلون طيبتك.

طال مرض الشيخ سيد واضطر للسفر إلى القاهرة لعمل بعض التحاليل، فتكرر جلوسي مع النساء اللاتي زاد عددهن وأصبحت كل امرأة منهن تأتي بابنتها، وهي إما كبيرة في السن ولم تتزوج، أو أرملة تريد المساعدة، ولا أعرف من أين عرفن أخباري وأنني لدي محل أبيع فيه الملابس، فرأيت بعضهن في المساء يأتين للشراء بالتقسيط أو لطلبات غريبة، فقد أتت إلي إحداهن ذات يوم وطلبت أن تبيع لي ثوبًا اشترته من محل آخر وممنوع فيه إرجاع ما يشترى، تعجبت مما يحدث، فالذي يعامل الناس يرى ويسمع العجاب، أشعر أن الناس يستغلون تساهلي معهم، لكنني أحيانًا لا ألين لهم، ورفضت طلبها، ولكنني قبل نومي ندمت، **وقلت لنفسي:** ليتني تساهلت معها، فالحياة لا تستحق كل هذا الصراع، فها أنا أنفق أضعاف ذلك على المرض.

الحُلْم الغريب

في غياب الشيخ سيد أتى بعض الناس وأعطوني بعض المال في أظرف لأوصلها للشيخ سيد، فحفظتها له كما هي ولم أفتحها ولا أعرف عدد ما فيها.

وذات يوم وأنا خارج من المسجد وجدت امرأة تدعو على الشيخ سيد، كان في الحقيقة يبدو عليها العذاب والشقاء، **قالت لي:**

حسبي الله ونعم الوكيل فيه.

كانت تدعو عليه بثقة لأنه غير موجود كما علمت من بعض النساء في المسجد، **قالت لي:**

أسأل الله أن لا يعود أبدًا من السفر.

سألتها: لماذا؟

فقالت:

أربي تسعة أولاد وأبوهم أصيب بشلل، فأتيت فسألته صدقة تكفينا فأعطاني عشرين جنيهًا في الشهر، فاضطررت للذهاب إلى مسجد آخر فرفض الشيخ إعطائي أي مال، فاضطررت إلى الذهاب إلى الكنيسة فسألت القسيس فأعطاني ما يكفيني.

حزنت رغمًا عني ولم أجد ما أقوله إلا دمعة نزلت من عيني،

وطلبت منها أن تأتي إلي كل شهر في المحل لأعطيها بعض المال، شعرت بصدقها وشكلها كان يوحي بالتعب والإرهاق.

فرحت لعودة الشيخ سيد فلقد بدأت النساء تطلب مني أن أزوج بناتهن وأن أعمل خاطبة، عزمت على أن أكون حازمًا معهن، ولا ألين لهن بالكلام، وأقرأ عليهن القرآن وأنصرف مباشرة، ولا أعطي لهن الفرصة للكلام ولكن يبدو أن الأمر صعب، فلقد استوقفتني إحداهن **قائلة لي:**

يبدو عليك الطيبة ولست كآخرين من قساة القلوب.

ثم دمعت عيناها كنت أول مرة أراها، كانت في منتصف العقد الخامس من عمرها فيما يبدو على قدر من الجمال، اشتكت لي من سوء ظروفها، وإنها لا تحب الإحسان لذلك تريد إعطائي مبلغًا صغيرًا من المال لأشتري به بضاعة وأعطيها نسبة من الأرباح، لقد أصبحت مشهورًا، لقد علم الناس ان لدي محلًا أبيع فيه الملابس، وألم يعلموا أن أمي مريضة وأنفق عليها؟ صدقت هذه المرأة وكان اسمها **إلهام**، ولم أكن محتاجًا لما دفعته من مبلغ ضئيل ولكنني أخذته حتى لا أحرجها، وواظبت على إعطائها مرتبًا شهريًا، كانت نيتي لله لعل الله أن يفك كربي.

واظبت إلهام على المجيء كل شهر إلى المحل، بعد أربعة أشهر كنت قد أعطيتها المبلغ الذي أعطته لي وزيادة، ففوجئت بها **تقول لي:**

يا شيخ إبراهيم لا تؤاخذني لا أحد يضمن الحياة أريد إيصالًا منك بما أعطيته لك لأضمن حقي.

فكتبت لها ما أرادت، كانت تعرف تمامًا أن ما أعطيه لها يعتبر إحسانًا ولكنني **قلت في نفسي:** امرأة أرملة استنجدت بك فساعدها لوجه الله حتى لا تنحرف، ذات مرة اشتكت لي إلهام ولمحت لو أجد لها زوجًا ليحميها من القيل والقال، فأحيانًا تضطر للخروج ليلًا لشراء دواء عندما تمرض، كانت تحدثني بانكسار، أردت مساعدتها، لذلك عندما كنت في مكتب الشيخ سيد ووجدت عنده رجلًا يطلب منه مساعدته في إرشاده إلى امرأة صالحة من المسجد ليتزوجها، وعرفت منه أنه أرمل وفي العقد الخامس من العمر، فاعتذر له الشيخ سيد أنه لا يعرف أحدًا، فأسرعت بالرد وأخبرته بالمرأة التي طلبت مني ذلك، ولم أخبره أنها مسكينة ولا أعطيها صدقة، فنظر إلي الشيخ سيد نظرة ذات مغزى لم أفهمها إلا فيما بعد.

الحُلْم الغريب

أصبحت مشهورًا بحب مساعدة الناس فزاد من يطلب المساعدة مني، ويشكو إلي همومه ويطلب حلها وإذا لم أستجب بالمساعدة المادية ينظر إلي المشتكي أو المشتكية بكراهية شديدة وحقد أشد، أتت إلي إلهام مرة في غير ميعادها وأنا خارج من مجلسي يوم الأحد، وطلبت مني مساعدتها في أن تحصل على نصيبها من إرث أخيها الذي توفى، وترك سيارة، كانت تريد نصيبها في هذه السيارة لأن زوجته أنكرت ملكيته لأي شيء، فحسبت معها كم سيكون نصيبها، فوجدته لن يكون كثيرًا، لأن أبويها كانا لايزالان على قيد الحياة، وبنات المتوفي، لم أرد الدخول في هذه القصة، فلقد أرادت إلهام أن أذهب معها ومعي مجموعة من الرجال من المسجد وإحراج زوجة أخيها، فقلت لها بطريقة خفية أن عليها أن تحمد الله مما يأتي إليها كل شهر ولا تنظر إلى ما في أيد الغير وتطلب العوض من الله، فنظرت إلي بغيظ وقالت لي بطريقة لم أعهدها منها من قبل:

منها لله، ضيعها الله كما ضيعتني، كنت في حاجة إلى المال فالحياة صعبة.

أحسست كأنها تدعو علي لردي عليها هذا الرد وعدم مساعدتها، كأنها تقول لي: ضيعك الله كما ضيعتني، هذا نصيبي من الله، هذا ما أحسسته من نظرتها وضغطها على الكلام وهي

تدعو على زوجة أخيها، بعدها جعلت الرجل يراها على باب المسجد وقت خروجها بعد الدرس، عندما رآها أعجبته فأعطيته عنوانها وأخبرته أنني لا أضمن أحّدا فالعلم بها عند الله، وأكدت عليه أنني غير مسئول عن اختياره، وعندما أتت إلي إلهام أخبرتها كذلك أنني لا أضمن هذا الرجل ولاعلم لي به، ونصحتها بأن تسأل عنه وتعرفه.

كانت إلهام ذكية عندما أتت إلي في الشهر التالي كانت قد عرفت كل عيوب هذا الرجل، فقد رأيت الحزن يعلو وجهها، وأخبرتني بكل عيوبه، **فقلت لها:** أنت حرة، فأنت لست بالصغيرة وعليك أن تتخذي القرار، أغراها الرجل بأنه غني وأهداها شبكة ثمينة، فوافقت وأتت إلي في الشهر التالي وهي تلبس خاتمًا من الألماس، **وقالت لي بزهو:**

لقد اختارني هو من عدد من النساء.

أحسست منها كأنها تقول لي ليس بفضلك هذا العريس ولكنه هو الذي اختارني، فحمدت الله فلا أريد أن أكون سببًا في شيء الله أعلم بعواقبه: **ثم قالت لي بحزم وقد تركت المسكنة:**

أنا لست بمسكينة ولا أعيش في الشارع، وأنا غير محتاجة لرجل لأستغله ولكنني أريد الاستقرار مثل أي امرأة.

كنت أحتمل الناس ليس عن ضعف ولكنني كنت أبتغي الأجر عند الله لعل الله يرفع عني الهم، فقد كنت أشعر أن علي لعنة، كل ما أريده لا يتحقق، غير ما ألاقيه من حسد المستغلين، لطالما سمعت من بعض مرتادي المسجد **يقولون لي**: مثلك من أهل التجارة الميسورين ماديًا لا يشعرون بأزمات محدودي الدخل، لم أكن أشكو همي إليهم، كيف أشكو وأنا معلمهم، وكنت بمجرد دخولي المسجد يتهلل وجهي بالفرحة والبشر كأنني في الجنة، لذلك كل من رآني وأنا متهلل الوجه يظن أنني لا أعاني من أية مشاكل.

كنت في مجلسي ذات أحد فأتى علي يستعجلني لزيارة خالي توفيق لنا، وكان بالمجلس رجل يريد قراءة جزئين من القرآن، فاعتذرت له عندما أتى علي، **فقال لي مؤنبًا:**

أهكذا يا شيخ إبراهيم؟ آتي إليك ولا أقرأ إلا ربعين فقط، لقد أضعت وقتي.

وبمجرد تفوهه بهذه الكلمات انفجر أخي علي فيه، **وقال له:**

احمد الله، فالشيخ هو الذي أضاع وقته معك، لقد انتهت الحلقة وأنت جالس وتريده يبيت في المسجد من أجلك؟

ففوجئ الرجل بهذا الرد، **وقال له معتذرًا:**

لم أقصد، إنني أعني أنني آتي إليه من مكان بعيد، ولدي مشاغل طوال الأسبوع، وهي فرصة أن أقرأ عليه جزءًا كبيرًا.

فقال علي:

والشيخ لديه مشاغل كثيرة وعمل ولابد أن يرتاح.

وانصرفنا وأنا ألوم أخي على أسلوبه الفظ وهو يؤنبني على تهاوني وضعفي، **وقال لي:**

لا أعرف كيف تجلس مع هؤلاء الناس وتكلمهم بهذا الهدوء؟ لو كنت مكانك لعرّفتهم مع من يتكلمون ولجعلتهم يلزمون حدودهم.

فكر خالي توفيق في عرض منزل جدي للبيع وخاصة أنه يطل على الترام، فقال لأمي يمكننا ببيعه إعطاء مبالغ للسكان لاستئجار شقق لهم حتى يتم بناء برج سكني مكانها، وخاصة أن نصف سكان المنزل قد تركوه فبعضهم توفي وبعضهم هاجر مع أولادهم إلى بلاد أجنبية وأخرى عربية، وكتبت إعلانًا ببيع الأرض بعد موافقة

السكان وخاصة أن البيت أصبح في حالة سيئة، فكان الأفضل لهم بناء بيتًا جديدًا، ونزل الإعلان ببعض الجرائد، وانتظرنا ولم يكف تليفون البيت عن الرنين فالجميع يسأل عن السعر ثم يغلق الخط، وعندما اتصل أحدهم رفض خالي لعرضه الثمن بالتقسيط، كان خالي يريد بيعه لشركة مقاولات كبيرة تدفع نقدًا، وخاصة أن المنزل يشغل مساحة كبيرة وفي موقع متميز.

وانتظرنا ومرت عدة أشهر فطلب مني خالي تكرار الإعلان ولم أفعل عندما تذكرت ما حلمت به، كنت بالاتفاق مع عمي عرضت مبلغ ثلاثة ملايين جنيه، لم أحدد هذا السعر جزافًا ولكنني سألت سمسارًا وطلبت منه أن أشتري أرضًا بنفس مواصفات منزل جدي **فقال لي:** لا تقل سعرها عن ثلاثة ملايين جنيه.

ولقد أتى خالي في هذا اليوم لأنه وجد مشتريًا واتفق معه على دفع المبلغ كله مرة واحدة، وبات عندنا خالي لمقابلة المشتري في اليوم التالي، وكانت المفاجأة اتصال المشتري قبل نزولي أنا وخالي مباشرة للاعتذار لظروف جدت عليه، وتساءل خالي بدهشة:

وهل الظروف تغيرت من المساء للصباح بهذه السرعة؟

وعاد إلى القرية وهو متضايق.

وأنا جالس في مجلسي يوم الأحد فوجئت بيوسف يدعوني لعقد زواجه، كان يحضر في مجلسي وهو حديث التخرج يعيش مع أمه، كنت أعرف أن إمكانياته ضعيفة، فليس لديه شقة ويعمل براتب بسيط، فظننت في نفسي أنه تزوج فتاة دميمة لترضى بظروفه، حضرت الحفل البسيط في المسجد، ولم يوزع ولا حتى أي شيء من الحلوى.

في ذلك اليوم ألحت علي فاطمة أن نخرج للتنزه والجلوس في أي كازينو لنشرب شيئًا، وبالفعل ذهبنا إلى أحد الكازينوهات على شاطئ البحر وكانت مفاجأة لي عندما رأيت يوسف جالسًا مع عروسه، رغمًا عني رأيتها، كانت آية في الجمال، عرفت منه بعد ذلك أنه عرفها عن طريق النت في أحد المنتديات، لم تكن محجبة فكلمها عن الحجاب ودعاها لزيارة أخواته البنات في البيت وخطبها بعد ذلك، منتهى البساطة، حكاية لا تحدث إلا في الأفلام، ورضيت بالزواج مع أمه.

دخلت في جميع المنتديات الثقافية والدينية لعل الله يفتح علي، وتجددت عندي الآمال، ولكن فتيات عديدة لم يقبلنني حتى وجدت بغيتي، فتاة مثقفة تتحدث في كل الموضوعات الثقافية والدينية والسياسية، وكانت تجيد بعض اللغات، هي التي بدأت الحديث

معي وأخبرتني أنها معجبة بفكري، **فقلت لنفسي**: أتاني الفرج، وأصبحت سعيدًا متفائلًا بهذه الصحبة، كنت أنوي خطبتها بعد أن نعرف بعضنا أكثر، عرفت عن هذه الفتاة كل شيء وهي كذلك، كنت أراسلها يومًا بعد يوم، وبسبب **منال** وهذا اسمها تجددت رغبتي في الحياة، وأصبحت أكثر تفاؤلًا ونشاطًا، كنت أجلس أمام جهاز الكمبيوتر مواجهًا الشرفة، ولأول مرة ألتفت إلى السماء أمامي وهي ممتدة فلم أرها من قبل بهذا الجمال، ولأول مرة أرى ألوان السماء ساعة الغروب، ورأيت أسراب العصافير تغدو وتروح أمامي كأنها في موكب تحتفل بقدوم الربيع،أحسست بخلايا مخي تتفتح وأرى مالا كنت أراه أو ألاحظه، وأفهم مالا كنت أفهمه، وأحببت الحياة والناس أكثر، وكلما رأيت شخصًا حزينًا سألت نفسي باستنكار لماذا يحزن؟ فما أجمل الحياة!

نويت ان أفاتح منال في أمر خطبتي لها، لم أسع إلى معرفة شكلها فما يهمني هو الروح والاتفاق العقلي وأن يكون بيننا حوار، ولم أتخيل منال إلا صورة لفتاة جميلة، فلا يمكن أن تكون صاحبة هذا الكلام إلا أن تكون رقيقة، أخبرتها برغبتي في الزواج منها وأخذ موعد من أهلها، فوافقت وأخذت منها موعدًا، وكلمتها عن ظروفي فوافقت بها ووعدتني بالوقوف بجانبي ومساعدتي، طلبت من أمي ومن

فاطمة الدعاء، فنزلت دمعة من عيني أمي عندما وجدتني فرحًا، وطلبت مني أن أذهب وحدي أول زيارة.

كان الميعاد بعد عشرة أيام لأنها كما قالت لي والدها يعمل كمحام وهو الآن مسافر في عمل، فبدأت من فوري عمل تجديدات في المنزل فاتفقت مع عمال لأغير دورة المياه تمامًا، واشتريت طاقمًا جديدًا، واشتريت ستائر جديدة، **وقلت لنفسي:** لماذا لم أفكر في تجميل البيت من قبل وخاصة أنني أعرف تجار الأقمشة ولن تكلفني أكثر من سعر الجملة، واشتريت صالونًا جديدًا، وبعض الورود وخلال عشرة أيام كانت الشقة قد تبدلت وتغيرت إلى الأجمل، لقد وجدت نفسي فجأة أكره كل ما هو قديم وبالي، وبرغم فرحتي تذكرت سهام، ووجدت أن فرحتي بها لم يكن له مثيل، فهذه الفرحة يبدو أنها لا تتكرر.

وفي اليوم المتفق عليه رأيت الدنيا كلها تبتسم لي، فهاهو الحظ يتغير ولقد حدثتني منال في نفس اليوم تؤكد على الميعاد، ولقد سمعت صوتها، فهي رقيقة كالنسمة، ارتديت ملابسي الذي جهزتها في اليوم السابق، القميص البدلة رابطة العنق الحذاء الجديد،

واستقليت سيارة أجرى وذهبت إلى كامب شيزار، نزلت قبل المنزل بعدة منازل، كان معي رقم المنزل، سرت دقائق قليلة وقبل أن أدخل البيت رأيت أمامي زميلًا لي كان معي في الجامعة، وكأنني أمثل فيلمًا سينمائيًا، فهذه الأشياء لا تحدث إلا في الأفلام، ولكنها حدثت معي، فقابلني **عزالدين** وهذا اسمه بترحاب وشوق، وسألني عن أحوالي فأخبرته أنني ذاهب لأخطب فتاة في هذه العمارة، فأخبرني أنه يسكن في نفس العمارة، وسألني عنها، فأخبرته باسمها، فامتعض وظهر على وجهه الرعب، **وقال لي:**

أنصحك لوجه الله وأنت حر فيما ستختار، لقد أرسلني الله إليك، من المؤكد أنك طيب وابن حلال، لذلك أرسلني الله في طريقك، هل تصدق؟ لم أكن أريد الخروج من بيتي اليوم ولكن ألح علي عمي بالذهاب إليه لأمر ضروري.

فقلت له بلهفة:

ما الأمر؟

فقال لي:

لقد كنت متزوجًا أخت هذه الفتاة، وعندما حدثت مشادة بيني وبينها ذهبت إلى أبيها فسلط علي رجالًا مأجورين وضربوني

في الطريق، وتم تلفيق قضية لي، وحرموني من رؤية ابني، وأذهب وأراه خلسة في المدرسة، فلقد هددوني إن أخذته سيضرون بأمي وإخوتي البنات، إنهم مسيطرون ظلمة، تريد أن تكون الكلمة لها ولأسرتها، ولا تريد رؤية أهلي، أنت حر.

وسار في طريقه، فكرت في أمي المريضة وأختي الوحيدة لمن أتركهم؟

عدت أدراجي وحمدت الله أن منال لم تر صورتي فأنا لم أنشرها في المنتدى، ولكنني أحببت أن أتأكد من المعلومات التي عرفتها حتى لا أظلمها، فذهبت إلى بيتها مرة أخرى، وسألت عنهم الجيران، فتأكدت من كلام عزالدين، ولم أعاود الاتصال بها، وضحكت فاطمة معي عندما علمت بما حدث **وقالت:**

لم نخسر شيئًا على العكس فبسببها ننعم الآن بشقة جميلة.

أما أنا فقد خسرت، فالأمل والفرحة عندما يتملكانني ثم ينتزعان مني فكأن سيارة صدمتني في الطريق من الخلف فجأة، وأحتاج إلى العلاج والراحة فترة من الوقت أو الانشغال في أي شيء لحد الغرق حتى أنسى.

غابت أمي عن الوعي، كنت وقتها في المتجر فاتصلت بي فاطمة فاتصلت بإسعاف المستشفى الخاص، فأسرعوا إليها وأنا ذهبت إلى المستشفى مباشرة، بت معها هذه الليلة، دخلت هي الإنعاش، وأنا بقيت في الاستقبال حتى الصباح، ثم انصرفت إلى البيت لأنام بضعة ساعات ثم عدت مرة أخرى، وجدتها قد خرجت من العناية المركزة فبقيت معها، ووقت الغداء دخلت ممرضة لتقدم لها الغذاء ولتطمئن عليها، عندما رأتني الممرضة ابتسمت لي على استحياء، كانت باهرة الجمال، وعندما انصرفت سألتني أمي:

ما رأيك فيها؟ إنها حنون طيبة لم تتركني طوال ليلة أمس.

فابتسمت لأمي **وقلت لها:**

هذا عملها.

فقالت لي:

لا، لقد مر علي ممرضات عدة، هذه مختلفة، لمسة يديها مختلفة تمامًا، كلها حنان.

فقلت لها:

بعد زواج فاطمة سأفكر في الزواج.

لم أعن ما قلت تمامًا ولكني أردت أن تكف عن فكرة الزواج، عرفت بعد ذلك من فاطمة أنها فاتحت هذه الممرضة عن زواجي منها وأخبرتها أنني أكسب كثيرًا ولكن كل أموالي تذهب إلى المستشفى، ووعدتها أنها ستكون كلها لها بعد موتها الذي اقترب، فابتسمت الممرضة ووعدت أمي بالموافقة، لم أهتم بالموضوع **فنهال** وهذا اسم الممرضة تعلم أن أمي مريضة في حال خطرة، ولذلك أظن أنها لم تشأ أن تضايقها، ونسيت الموضوع بمجرد ما ذهبت إلى المحل وانشغلت في العمل، فمنذ مرض أمي والشراء في ازدياد أشعر أنه رزق من الله لأجلها، عدت إلى المستشفى لأطمئن على أمي فأخبرت أنها ستخرج ذلك اليوم، ثم أتت نهال فساعدتها وسلمت عليها بحرارة ووعدتها بزيارتنا في البيت، لم أعاتب أمي على ذلك فهي مريضة وفي حالة بائسة، لقد جعلها مرضها تنسى أنها تكره الممرضات، ولكن علمت بعد ذلك من جاري في العمل **الحاج صبري** صاحب المحل المجاور بأن رجلًا سأل عني وقال أنني خطبت ابنته، كانت مفاجأة لي فنهال ظنت أن الموضوع جد وأنني طلبتها، لم أرتاح لهذا الأمر، هي جميلة بالفعل وفاتنة ولكنني لم أطمئن لها بسبب ربما كبر سنها فهي كما يبدو تعدت الثلاثين، فلماذا تأخرت في الزواج؟ عندما قلت ذلك لفاطمة غضبت مني **وقالت لي:**

ربما أنا أيضًا أتأخر في الزواج بعد ما حدث لي، ما المانع؟

فسكت، بعد ذلك قابلت نهال كثيرًا في المستشفى كلما ذهبت أمي لعمل جلسات العلاج الكيميائي، وكانت نهال تعاملنا بمنتهى الرقة، لم أرتاح إليها لا أعرف لماذا، وشعرت أنني سأمر بنفس تجربة فاطمة الفاشلة، **وقلت لنفسي:** لو لم تكن أمي مريضة بهذا المرض لرفضت بشدة ولكنني لم أدر كيف أتصرف، وخاصة بعد ما أخذت أمي معهم موعدًا، عندما حاولت إقناع أمي برفق أنني لا أريدها، ثارت في وجهي وحذرتني:

إياك إياك يا بني والبطر، احمد الله أنها وافقت على ظروفك، وإذا رفضتها بعد ذلك سينتقم الله منك شر انتقام على رفض نعمته.

قاومت إحساسي **وقلت لنفسي:** ربما كنت لا أشعر بالراحة من تكرار تجاربي الفاشلة.

لم تكن نهال محجبة، كانت شقراء بيضاء ناصعة البياض جميلة رقيقة، جلست مضطرًا مع والديها، رحبا بي كثيرًا، طلبت منها كشرط أساسي لإتمام الزواج أن ترتدي الحجاب، **فأجابت أمها:** طبعًا سترتديه، كانت أمها فرحة بي فرحًا فوق العادة، وكذلك

والدها، وقالت لهم أمي إنها مستعدة لإتمام الزواج في بيتها فالشقة كبيرة وفاطمة ستتزوج في يوم ما.

ارتدت نهال حجابًا صغيرًا على ملابسها الضيقة، واشترينا دبلة للخطبة وخاتمًا، وعندما تضايقت من ملابسها **قالت لي أمي:**

لا تتعجل، إذا أحبتك سترتدي الحجاب الشرعي، وستقتنع بكلامك.

سكت على مضض، فلم أتمن أن ترتدي الحجاب من أجلي، ولكنني تمنيت لو كان هذا نابعًا من قلبها.

خرجت معها عدة مرات مع أمي وأختي وشعرت أن أفكارنا مختلفة تمامًا، ولكن وجهها كان جميلًا ؛ لا تمل من النظر إلى هذا الوجه الملائكي، كان شكلنا ملفتًا للنظر فلحيتي طويلة وعلامة الصلاة على جبهتي وبجانبي فتاة ترتدي ملابس ضيقة جدًا وترتدي حجابًا صغيرًا يظهر جزءًا كبيرًا من شعرها، ناهيك عن الحواجب المرققة والأقراط المتدلية الملفتة للنظر مثل فاتنات السينما، شعرت بالذنب من نظري لهذا الجمال الفاتن لذلك طلبت عقد الزواج حتى لا أشعر بالإثم رغم رفضي لها، فرفضت هي ففرحت لذلك، فمعنى ذلك أنها غير مطمئنة لي تمامًا وربما أهلها ضغطوا عليها، لا يهم، لم أعرف

ماذا أفعل تمامًا، فكرت استغلال هذه المناسبة لأتركها بهذه الحجة، فكلمت أمي فرفضت، **وقالت لي:**

إنهم يريدونك وعدم عقد الكتاب ليس معناه رفضك، وإنما هم ينتظرون تحسن ظروفك.

فقلت لها مستغلًا الموقف:

إذن سأزورهم بعد عقد الزواج.

كانت أمي متعبة وكانت تتكلم بصعوبة، ثم ذهبت في إغماءة فأسرعت بها إلى المستشفى، ودخلت الإنعاش، ونزلت في الاستقبال فقابلت نهال ومعها طبيب عرفت ذلك من هيئته وكانت السماعة متدلية على صدره، فألقيت عليها السلام فسلمت علي بفتور **وقالت لي:**

الدكتور حاتم.

ثم قالت له وهي تشير علي:

إبراهيم، بدون أية كلمة.

نظرت إلى يديها فلم أجد دبلة الخطبة، ففهمت الأمر إنني موجود احتياطي للظروف، وحمدت الله أنني رأيت ذلك وأخبرتها بأن ما بيني وبينها قد انتهى، وطلبت منها أن لا تخبر أمي لأنها

مريضة، وحمدت الله أن هذا الموضوع قد انتهى، ولكنني رغمًا عني كنت أفكر فيها كشكل جميل وتمنيت لو تزوجت فتاة تشبهها.

في هذه الليلة رأيت الحلم مرة أخرى سمعت صوتًا يقول لي: كل ما تتمناه ستحصل عليه بعد وفاة أمك، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم. فهذا الحلم كان فتنة لي يجعلني أتمني موت أمي.

ذهبت إلى مجلسي يوم الأحد وأنا شارد مما رأيت، وعندما اشتكى لي **مروان** من زوجته، كان مروان في العقد الخامس من عمره و يحضر مجلسي، مازحته **وقلت له:**

الله حلل الزواج بأربعة فلتتزوج عليها.

كنت أمزح أمام المجموعة، ولم آخذ الأمور محمل الجد، وهذه عادتي كلما انتابتني مصيبة كنت أمزح لأحاول إخفاء ما بي، ونسيت أمره بعد ذلك.

رأيت إلهام في الشهر التالي حزينة **وتقول لي:**

منه لله الذي كان السبب.

فقلت لها:

من السبب في زواجك؟ ألم تختاريه بمحض إرادتك؟

فقالت لي:

أقصد أنه خدعني وكذب علي في بعض الأشياء، وأوهمني أنه سيغدق علي المال، على العموم إنه ليس سيئًا بدرجة كبيرة، ففيه مميزات أخرى كثيرة.

فكرت أن أعطيها الخمسمائة جنيه ولا أعطيها المائة وخمسين جنيهًا كل شهر، فزوجها ينفق عليها الآن، وهذا ما عزمت عليه في المقابلة التالية لها، ولكن لدهشتي مما جعلني أتعجب بشدة فلقد أتت قبل الميعاد وهي متورمة الوجه، وقالت لي إن زوجها بخيل ولم يرض أن يعطها مالًا لتشتري به ما تريد، وقالت لي إن والدها كان يعطيها مبلغًا من المال كل شهر للمساعدة ولكنه بعد زواجها انقطع عن ذلك، كانت تريد إعطائي خمسمائة جنيه أُخر وأعطيها ثلاثمائة جنيه كل شهر، فواسيتها ورفضت زيادة المبلغ واعتذرت لها بأن حركة البيع راكدة، ولكنني تراجعت في قراري الذي كنت قد عزمت عليه وواصلت مساعدتها.

أقبل شهر يوليو بحرارته العالية وأخبار نتائج الجامعات والثانوية العامة؛ فأعطاني **الحاج فهمي** علبة من الشيكولاتة **وقال**

لي: النبي قبل الهدية، وهذه هدية بمناسبة نجاح ابني وتخرجه من الجامعة، فشكرت له ذلك، **وقال لي:**

لقد نجح يا شيخ إبراهيم بفضل دعواتك له.

وعندما خرج من المسجد وزعت العلبة كلها على الجالسين، ثم ناداني خادم المسجد وطلب مني الذهاب إلى مكتب الشيخ سيد لأمر هام، ما أحزنني وكان مفاجأة لي هو مجيء زوجة مروان إلى المسجد وانتظاري في مكتب الشيخ سيد تريد الحديث إلي، فدخلت عليها فثارت في وجهي، **وقالت لي:**

منك لله، خربت بيتي؛ لقد تزوج مروان علي بسببك، فلقد أخبرني بعض من كان معك في المجلس بذلك، إنه كاذب، كان يريد الزواج فأراد تبرير ما يفعله، كذب على نفسه وصدق كذبه، إنه بخيل أناني.

ثم قالت وهي تشير علي:

من لا يفهم في الدعوة فليجلس في بيته.

قبل خروجها مباشرة أقبلت امرأة وألقت السلام فلم ترد زوجة مروان وخرجت غاضبة، **فقالت هذه المرأة للشيخ سيد:**

أرأيت يا شيخ سيد زوجة أخي؟ إنها حتى لا ترد علي السلام، ألا يكفيها أنها فرقت بيني وبين أخي.

لم يرد الشيخ سيد، فقالت مستدركة ما قالته:

فليسامحها الله.

ثم أخرجت من حقيبتها بعض المال لتتبرع للمسجد، فأعطاها إيصالًا بذلك، وسألها عن الوجوه التي ترغب في إنفاقها فيه وانصرفت، كنت أنتظر لعل الشيخ سيد يعزيني بكلمة ولكنه لم ينطق، أحسست **كأنه يقول لي:** كفاك هذا الدرس العملي ولا داعي للتدخل في حياة الناس، فاستأذنت وانصرفت.

حزنت بشدة، كنت أمزح، لطالما قال هذه الكلمة رجال ولم يتزوج أحد بسببها، يالسوء حظي!

وأنا خارج من المسجد حزينًا شاردًا استوقفني رجل ليسألني سؤالًا فنهرته بشدة وأنا فاقد الوعي فلم يكن من طبعي نهر الناس، **وقلت له وأنا أشيح بيدي:** اسأل الشيخ سيد.

فانتفض الرجل وابتعد.

الحُلْم الغريب

عدت إلى البيت منهك القوى فسمعت صوت رجل يستوقفني وأنا صاعد على السلم **فقلت له بدون ما أشعر:**

اسأل الشيخ سيد.

فقبض أخي **علي** على يدي **وقال لي:**

أفق يا أخي، هل ذهب عقلك؟

فاشتكيت له بعض معاناتي، **فقال لي:**

تريد الحق ولا تغضب مني؟

فقلت له:

وهل يغضب من الحق عاقل؟

فقال لي:

كل ما تفعله خطأ؛ ذهابك إلى المسجد وجلوسك تعلم الناس، ونصائحك لهم، يا أخي، عندك اكتئاب اجلس في بيتك واقرأ القرآن وحدك، ودع الناس فليذهبوا إلى الجحيم هم والشيخ سيد.

فغضبت من أجل أنه أخطأ في حق شيخي، **وقلت له:**

اتق الله، إنه حافظ لكتاب الله وشتمه نفاق.

فقال لي:

أرأيت؟ لقد غضبت من الحق، لا تهرب من نفسك، ما يحدث لك هو حالة هروب من مشاكلك، أفق يا أخي ودع الخلق للخالق، الحق معروف فلا تضيع وقتك مع بعض المنافقين، القنوات الفضائية لم تترك شيئًا ولم تشرحه وتستفيض فيه، إنني أشك في كل من يجلس في المسجد بعد الصلاة ويشكو همه للناس، فهو إما متسول وإما فقير ليس معه ما ينفقه في النوادي فيعتبر المسجد ناديًا.

لم يعجبني رأي علي، فالدين النصيحة، والشيطان بعيد عن الجماعة، والصحبة في الله من علامات الإيمان، وأعرف أناسًا أفاضل في المسجد وأغنياء، ولكنني لم أرد عليه الرد الذي كان في ذهني لأنني لم أرد إحراجه، فهو أخي الصغير، وإن كنت أنا أهرب إلى المسجد فهو أيضًا يهرب إلى المقهى ليلًا وخاصة بعد فشل أول عملية لطفل الأنابيب أجرتها زوجته، وأصبح يدخن النارجيلة يوميًا علاوة على إسرافه في الطعام، فلقد زاد وزنه وأصبح وزنه مائة كيلوجرامًا.

سألتني أمي ونحن نتناول طعام الإفطار عن سبب عدم اهتمامي بنهال، **فقلت لها:** إنني غير مستعد الآن للزواج، كان قد

مر شهر على ما حدث بيني وبينها، ولم تتصل خلال هذه الفترة، ولم نذهب إليهم، وتحججت بأن أباها يريد الشقة أولًا، **وقلت لها:**

اطمئني يا أمي فهي لن تطير.

ثم أسرعت إلى الخروج حتى لا تلح علي بأن أتصل بها.

صليت الظهر في المسجد، كان الجو شديد الحرارة في ذلك اليوم في شهر أغسطس، وكنت صائمًا، كان من المفترض أن أصلي الظهر وأذهب إلى المحل ولكن غلبني النوم في المسجد وأنا أختم الصلاة فنمت تحت المروحة، فرأيت رؤيا كأن أحدًا يضربني على وجهي **ويقول لي:** أفق...أفق، فقمت من النوم فزعًا وكأنه واقع.

بعد ذلك في المجلس التالي قلت للناس قبل أن أبدأ في القراءة: من أتى إلى هنا ليأخذ مالًا أو ليبحث عن عروس أو ليبحث عن توصية لوظيفة فطلبه ليس عندي، إنني أعلم القرآن وكفى، فتغيرت وجوه كثيرة وتلونت، وفي المجلس التالي قل عدد الجالسين كثيرًا. ورأيت بعضهم ينظر إلي بكره، وقال آخر بعد وقت في معرض حديثه عن شيء آخر: الله يأخذ النعمة من الذين يمنعونها من الناس ثم نظر إلي بطرف عينه، وأحسست انه يقصدني بقوله، أحسست بالعجز من عدم مهارتي في التعامل مع البشر، وشعرت أن الجميع

يكرهونني بلا استثناء، وأن كل من يأتي إلي يأتي لمصلحة ما، أقلها الفضفضة بالشكوى.

كنا في شهر يناير والرعد يدوي في الخارج وصوت المطر المنهمر على زجاج النوافذ جميل في آذان الجالسين في البيوت متدثرين بالأغطية، كأنه موسيقى عذبة أو كأنه طرق حبيب على الباب، استيقظت على هذا الصوت الجميل، نظرت في الساعة كانت العاشرة صباحًا، فقمت وصليت الضحى وجلست أمام التلفاز أقلب في قنواته الكثيرة، وكانت فاطمة منهمكة في عمل بلوفر يبدو من أكمامه التي انتهت أنه رائع في الجمال، وجلست أمي بجانبها وهي تشرب فنجانًا من القهوة، فداعبتها **وقلت لها:**

هيا أيتها العاطلة جهزي لي كوبًا من الشاي بشرط أن يكون ساخنًا جدًا.

وقبل أن ترد رن رقم التليفون كان سمير يخبرني بموت الحاج أحمد، وكان من مرتادي المسجد، فاتصلت بأسرته لأواسيهم وأعرض عليهم المساعدة فرد علي ابنه بفتور فظننت أنه من الحزن، وخرجت وقت الجنازة للمشاركة في تشييعها، جلست بين المعزين

فسمعت كلامًا عن صبر الحاج أحمد على المرض والفقر، يبدو أنهم كانوا يعرفونه جيدًا، أما الرجل فلم يبد لي في حياته أنه يعاني من أي شيء، بل لقد سألني ذات مرة:

يا شيخ إبراهيم، إنني ليس لدي مشاكل أخشى أن يكون هذا استدراج من الله.

عرفت في الجنازة أنه من الذين لا يسألون الناس إلحافًا تعرفهم بسيماهم، ولكنني لم أعرفه بسيماه، فليسامحني الله، لو كنت أعرف أنه فقير محتاج لعرضت عليه المساعدة، شعرت بتأنيب ضميري، أثناء الجنازة كنت أرى الناس ينظرون لي بكره، وبعضهم ينظر إلي ثم يفر كأنني أجرب، مرت الجنازة وانا أحتسب الأجر عند الله، فلولا ذلك لعدت أدراجي.

بعد الدفن كلمني سمير عن حالة الحاج أحمد التي تدهورت، وكيف مات، لقد نصحه الطبيب بعدم الخروج للصلاة عدة أيام لخطورة ذلك على حالته، ولكنه لم يستمع لنصيحة الطبيب فخرج فمات، ثم تلعثم سمير بالكلام وأحسست أنه يحاول إخفاء شيء، **ثم قال لي:**

أعرف أنك طيب القلب ولكن بعض الناس يفهمونك خطأ.

فسألته:

ما الأمر؟

فقال إن بعض الناس يتهمونني بأنني السبب في موت الحاج أحمد؛ لأنني قلت أمامه لو قال لي الطبيب لا تخرج للصلاة في المسجد لخرجت، **فقلت له بغضب:**

أنا حر، أقول ما أشاء، وأفعل ما أشاء.

فصمت سمير، ولكنني بعد عودتي إلى البيت بكيت، فيبدو أنني لم أكن حرًا، وقتلت الرجل، فهو رجل أمي، وجعلني قدوة له. بكيت كثيرًا وأيقنت أنني لست أهلًا لتعليم الناس.

كان الجو شديد الحرارة في شهر أغسطس، سرت طويلًا أتنقل من صيدلية إلى أخرى أبحث عن دواء لأمي، تصبب العرق على وجهي وتعبت من السير في الطرقات، فسرت بارتخاء من الحر والتعب حتى رأيت ما جعلني أستعيد نشاطي، فلقد رأيت سيدة غير محجبة وتضع المساحيق على وجهها فبهت، إنها هي نفس السيدة التي رأيتها مع السيدات في حلقة الشيخ سيد ترتدي خمارًا كبيرًا، سبحان الله! ما الذي يحدث في هذا العالم؟ عندما حضرت مجلسه

نيابة عنه وهو مريض كانت كثيرة الأسئلة عن الحرام والحلال والمكروه والواجب والمستحب والمندوب، ظننتها ستخجل عندما تراني ولكنها لم تخجل على العكس ألقت علي السلام:

السلام عليك يا شيخ إبراهيم.

ركبت سيارة أجرة وذهبت إلى صيدلية كبرى في محطة الرمل، وفي محطة الرمل قابلت سمير، كان يتجه نفس اتجاهي إلى الصيدلية، رأيته يتمتم بفمه فظننته يسبح الله في الطريق، وعندما اقتربت منه لأسلم عليه سمعته وهو يدعو على أحد، فسلمت عليه **وسألته:**

خيرًا إن شاء الله؟

فقال لي:

لقد تعبت من البحث عن دواء لابن الضابط، حسبي الله ونعم الوكيل فيه.

في المجلس التالي فوجئت بالحاج فهمي يجلس متجهمًا، **سألته:**

مالك يا حاج فهمي؟

فقال لي معاتبًا:

لقد مرضت ولم تسأل عني، لم أتوقع ذلك منك.

فقلت في نفسي: لو كل مرتادي المجلس مرضوا وزرتهم لن أنتهي من عملي أبدًا؛ فليس لدي وقت لكل هؤلاء الناس، ولكنني أحسست أن قبولي الشيكولاتة هو السبب، ولكن ما من قبولها بد فالنبي ﷺ قبل الهدية، وبرغم شفائه ومجيئه المسجد إلا أنني ذهبت إليه في بيته وأهديته بهدية قيمة أضعاف هديته حتى أسلم من لسانه ونظراته، ولكن رغم كل هذه المضايقات كان لدي يقين بأن الله معي.

ذهبت يوم الأحد صباحًا مع فاطمة إلى حديقة الحيوان كما طلبت مني، أرادت فجأة أن ترسم لوحة للقرود، وأتت معها بكرسي صغير وأدوات الرسم، وجلست أمام قفص القرود لترسم قليلًا ثم توجهت إلى الجبل الذي يعيش فيه عدد كبير من القرود، وأخذنا نتأمل حركاتهم، **فقلت متعجبًا:**

سبحان الله، لو عاش الناس في سلام مثل القرود هدوء تام وسلام......

ولم أكد أكمل كلامي حتى قامت معركة ضارية بين القرود، فجأة دفع أحدهم الآخر من الجبل ثم علا الصراخ والضرب ثم

عاد الهدوء مرة أخرى، كل ذلك تم بسرعة، فضحكت فاطمة، **وقالت لي:**

أعوذ بالله من شر حاسد إذا حسد.

فقلت لها:

لا، لم أحسدهم، ولكن لعل الله تعالى يريني أن الحياة لا تخلو من الصراع حتى بين الحيوانات.

ثم قلت لها باستكبار:

لاحظي أن صراعهم لم يتعد عدة ثواني، لو كانوا من بني الإنسان لظلوا سنوات يضربون بعضهم قبل الصلح إن كان هناك صلح.

فردت علي مازحة:

إبراهيم، اترك القرود في حالهم.

قضينا وقتًا ممتعًا، والتقطت لفاطمة بعض الصور وعدنا إلى البيت.

سمعت طرقًا شديدًا على الباب، كان الوقت بعد صلاة الظهر،

قمت فزعًا من النوم وفتحت الباب لأجد أمامي والد إلهام الذي لم أره من قبل، فدفعني بيده وأمسك بخناقي **وقال لي:**

أنا والد إلهام الذي تسببت في سجنها، الآن هي في السجن محكوم عليها بسنة سجن لأن زوجها الذي زوجتها إياه سيادتك اتهمها بسرقة مائة ألف جنيه، عليك بدفع المبلغ أو أن توكل محاميًا، افعل أي شيء حتى تخرج ابنتي أو سأقتلك.

ثم دفعني على الأرض وضغط على رقبتي بكلتا يديه وأنا أتصبب عرقًا، ناديت على أمي وعلي وفاطمة لم يخرج صوتي، صرخت لم يخرج صوتي والرجل جاثم فوق صدري، ثم رأيت الحاج أحمد وهو يقترب في كفنه ففرحت واستنجدت به فركلني برجله، ورأيت من بعيد زوجة مروان تضحك بصوت مجلجل **وتقول:**

نعم، اشنقه إنه يستحق الشنق.

ثم اقتربت مني، ولطمتني على وجهي، فقمت من النوم وأنا منهك القوى أحمد الله ان ما حدث كان كابوسًا وياله من كابوس!

شعرت بالاختناق أردت أن أستشير أحدًا قريبًا من الله ليخفف عني ما أنا فيه، وينصحني بكلام يرضي الله، ذهبت إلى صديق لي

كنت أرتاح معه، كان ذلك في شهر رمضان بعد صلاة العصر، كان **أشرف** في الثالثة والثلاثين من عمره، يصغرني بأربع سنوات، وكان متزوجًا ولديه طفلان، عرفته في رمضان أثناء الاعتكاف في العشر الأواخر، كان ذلك منذ ثلاث سنوات ولم تنقطع صلتنا، وكان يعمل مدرسًا، اتصلت به أستأذنه في الزيارة، فرحب بي، وذهبت إليه والحزن يملؤني، وأخبرته أنني لن أذهب إلى المسجد مرة أخرى، سأصلي الفروض في مسجد آخر حتى لا يطلب مني أحد أن يقرأ علي، وسأمتنع عن تعليم الناس تمامًا، وحكيت له كل ما فعلته من سلبيات وإيجابيات، فنصحني بالاستمرار بدون الكلام إلا فيما أفهم فيه فقط، تعليم الناس القراءة فقط، ولأدع الأعمال الخيرية والنصائح الدنيوية والفتاوى لأصحابها، ونصحني بعدم توزيع المال على كل من هب ودب حتى لا يطمع في الناس، ولأعطي ما أريد التصدق به للشيخ سيد أو لأي مستشفى خيري.

في هذه اللحظة رن جرس الباب، فاستأذن أشرف لفتح الباب وبسرعة البرق رأيت رجال البوليس من كل شكل ولون ينتشرون في الشقة، فاستأذنهم أشرف قليلًا حتى ترتدي امرأته الحجاب، فأذنوا له، وفتشوا الشقة كلها، فلم يجدوا إلا كتبًا دينية، فقبضوا عليه وأخبروه أن لديهم أمرًا باعتقاله، وأخذوني معه، كان

من المعتاد القبض على الإخوان ليلًا، ولكن ذلك اليوم قبض عليه نهارًا لأنه كما عرفت منه فيما بعد كان مراقبًا، وكان كثير الغياب عن المنزل، فانتهزوا فرصة وجوده للقبض عليه، لم يكن لي أي اتجاهات فكرية، ولكن أشرف كان من جماعة الإخوان، ولم يكن يخفي ذلك، أما أنا فكنت معتدلًا آخذ بأي رأي يعجبني سواء من جماعة السلف أو الإخوان، ولم أكن متعصبًا ولا متزمتًا لذلك كان كل من يعرفني في المسجد لا يشعر بالحرج في الكلام معي وإخباري بأسرارهم وسؤالي أي سؤال، بعكس خوفهم من بعض الناس المتشددين، فيبتعدون عنهم.

كان أشرف متماسكًا وابتسم أمام زوجته وأطفاله حتى يطمئنهم، أما أنا فلم أجزع، في البداية شعرت أنني أحلم، نزلت معهم وركبنا في سيارة ميني باص عادية ثم وصلنا إلى الترحيلات ونزلنا تحت الأرض لمسافة خمسة أمتار في زنزانة بها تسعة من السياسيين، وكان في الزنزانة حمام بدون باب، وعندما دخلنا الزنزانة كانت رائحة المجاري شديدة لتعطل الموتور الذي يضخ المجاري للخارج وكان المساجين في الزنازين الأخرى ينادون بأعلى صوتهم لتصليح الموتور لأن الرائحة لا تطاق.

الحُلْم الغريب

في اليوم التالي عرضنا على النيابة واتهمنا بمحاولة قلب نظام الحكم، والتعاون مع طالبان، والتعدي على رجل شرطة أثناء تأدية واجبه، وتعطيل حركة المرور والتسبب في انقلاب ترام أمام السيارات، وتمويل جماعة محظورة.

وبرءنا الدفاع مما نسب إلينا فلقد حضر محامي الإخوان ودافع عنا، وصدر الحكم بتجديد الحبس خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق، وخرجنا من المحكمة وكان ينتظرنا بالخارج الأقارب والأصدقاء وناداني علي من بعيد فأشرت له وسلمت عليه وأنا أركب الميني باص وأنشد بعض الإخوان الأناشيد الحماسية وتوجهت العربة بنا إلى سجن برج العرب.

لم يكن في الزنزانة التي نزلتها إلا السياسيين وهذه نعمة من الله، كنا ثلاثين شخصًا، ولم أفق من الحلم إلا عندما سمعت صوت الباب وهو يغلق علينا بالمفتاح، حينئذ أحسست أنني قمت من النوم، أما ما حدث من قبل كله فقد كنت أتخيله سينتهي لأنه حلم، فالترحيلات رأيتها حلمًا قصيرًا والمحكمة رأيتها حلمًا أيضًا وركوبي السيارة والهتافات كل ذلك كان لقطات من حلم طويل، وعندما أفقت وأدركت أنه حقيقة لم أحزن، فعلى أي شيء أحزن؟ فقد كنت أشعر أنني في سجن كبير، كلما أردت فعل شيء يحدث عكسه.

لم أشعر أنني خسرت شيئًا أو سأخسر شيئًا، رأيت أن مكاني في السجن أفضل لي، ففي السجن ليس هناك أمل، ولا سعي وإنما أنت جالس تنتظر الخروج، أما في الحياة فأنت تسعى وتكدح، فإذا خاب أملك وسعيك شعرت بالعجز والحرمان، وكأنك غريب في الدنيا؛ تجلس مع الناس ولست معهم أو منهم، أما في السجن فالهم يجمعنا وإن لم نتكلم فهناك ثمة اتفاق بيننا، هذا كان إحساسي في اليوم الأول، لكن بعد ذلك شعرت بنعمة أن يكون لك بيت وحدك، وسرير تنام عليه، ودورة مياه نظيفة بباب مغلق، واستغفرت الله على عدم حمده كما ينبغي فأنا أردت كل شيء في الدنيا، ولم أشعر بما كان لدي من نعم.

لم أكن أعرف أن رؤية السماء نعمة من الله إلا وأنا في السجن، فمن عادتي في أوقات حزني النظر إلى السماء أو البحر أو الخضرة فهذه الأشياء تريحني، وتخفف من حزني، لم نكن نرى السماء ونحن في السجن إلا من وراء حجاب وهو عبارة عن شبكة من الفولاذ، كان أفضل أيامنا يوم الزيارة فهو اليوم الوحيد الذي نمشي فيه مسافة كبيرة من الزنزانة إلى المبنى المخصص للزيارات، وكنا نمشي تحت السماء ونراها بدون ستار، ونجلس مع أهلينا ونأكل معهم لمدة ساعتين.

الحُلْم الغريب

بعد أسبوعين ذهبنا إلى المحكمة للاستئناف وتم إصدار الحكم بإخلاء سبيلنا وذهبنا إلى الترحيلات ومكثنا هناك سبعة أيام ثم عدنا إلى السجن مرة أخرى بأمر اعتقال، لم أكن حزينًا من السجن بقدر حزني من الأحداث التي مررت بها، لا يعني هذا أن السجن تجربة سهلة، لا على الإطلاق إنه تجربة صعبة، ويتفاوت بين الناس ما يرونه فأنا لم أضرب ولم أعذب، ولكن برغم المعاناة من عدم الحرية كان فرصة لي لمراجعة النفس، فصخب الحياة في الخارج يجعلك ليس لديك وقت لمراجعة النفس.

اكتشفت نفسي لأول مرة لقد كنت طوال حياتي أنانيًا لا أفكر إلا في نفسي، فأمي لم ألتمس لها الأعذار بجهلها، وأبي لم أعامله المعاملة التي يستحقها، وكنت طوال الوقت أفكر في نفسي، فكرت أكثر، اكتشفت أن الله كان معي ومع إخوتي فربما لو تزوجت بسرعة لما اهتممت بهم، ولو لم تقابلني هذه العقبات لما حفظت القرآن ولما أطلقت لحيتي ولا امتنعت عن التدخين، لم أكن أحمد الله على النعم التي حباني الله بها، لم أكن أرى إلا البؤس، واستغفرت الله من تعليم الناس بجهل، رأيت أمامي صورة إلهام وهي تدعو علي بطريقة غير مباشرة ورأيت زوجة مروان وهي تدعو علي، ورأيت أمامي جنازة الحاج أحمد ثم دفنه في المقبرة والدعاء له، لم تفارق صورتهم

عيني، راجعت القرآن الذي كان متفلتًا مني بسبب كثرة مشاغلي، وأخذت قرارًا في السجن بأنني لن أذهب إلى المسجد حتى أتعلم الفقه وأصوله وأصول التعليم، لم أبك في السجن إلا عندما زارتني أمي، كانت بسبب المرض قد نحل جسمها وتتنفس بصعوبة، لذلك عاملها الضباط معاملة خاصة رحيمة، وربت على كتفها أحد الضباط، **وقال لها:**

ادعي لي يا حاجة، أنا عبد المأمور.

فقالت له:

الأمر لله وحده.

كان فشل خطوبة فاطمة سببًا كبيرًا في اقتراب أمي من الله أكثر من قبل.

أخبرنا في السجن أنه سيفرج عنا بعد يومين فارتفعت روحنا المعنوية، وصلينا يومها كثيرًا ندعو الله ونشكره ونستغفره، ولكن كانت الصدمة قاسية عندما مر اليومان ولم نخرج، **فقال أشرف لي كي يثبتني:**

اصبر، إنه جهاد في سبيل الله، ماذا فعلت؟ كل مافعلته أنني

وزعت أحاديث على الناس للتذكرة، وأقمت حفلة للمتفوقين في الحي الذي أقطن فيه، ووزعت عليهم جوائز وألقي في الحفل بعض الأغاني الدينية.

ثم ابتسم راضيًا وقال لي:

الحمد لله إن مت الآن فسأموت وأنا راض، فأنا في جهاد وأمي راضية عني وهذا أهم شيء.

من تعب معي في سجني هو علي فلقد ظل لمدة ثلاثة أشهر يأتيني بالطعام والشراب والأغطية حتى خرجت، أما فاطمة فلقد طلبت من علي أن يمنع مجيئها حتى لا تتعرض للتفتيش والإهانة، بعد خروجي عرفت من فاطمة أن الجيران وكل من يعرف كان يسألها لماذا قبض علي؟ وكانت في غاية الإحراج وخاصة عندما تسمع أحدهم **يقول:**

معقول؟ يعتقلون الناس بغير سبب؟

وعرفت من فاطمة أن نهال لم تمتنع عن زيارتهم مما طمأن أمي أن هناك أمل عندما تتحسن الأمور على زواجي منها، ثم فوجئت بها تتصل بي، فشكرتها على زيارتها لأمي، ولكنني أحسست من كلامها أنها تريد إصلاح الأمور معها، وقالت لي إن الشيطان دخل بيننا وأنها

لن تجد شابًا في مثل أخلاقي، فأيقنت أن الطبيب الذي كانت تطمع في الارتباط به يبدو أنه كان مشروعًا خاسرًا، فأكدت عليها أننا غير متفقين في شيء حتى لا تأمل في شيء.

انشغلت في المحل كل الوقت وانقطعت عن المسجد تمامًا، بعد ذلك انهالت علي المكالمات التليفونية من الناس الذين كنت أعلمهم لما علموا بخروجي، وسمعت أجمل الدعوات لي، وطلبوا مني العودة، وسألني بعضهم:

هل تخشى من الاعتقال لذلك امتنعت عن المسجد؟

لم أكن أخشى من الاعتقال ولكنني كنت أخشى الله من جلوسي في المجلس مع عدم درايتي بأساليب الدعوة، لقد ذهبت إلى المسجد أول ما ذهبت في لحظة يأس من الحياة أما بعد ذلك فأردت عمل عمل صالح يدخلني الجنة، فوعدتهم بذلك بعد دخولي معهد إعداد الدعاة.

قدمت في المعهد فحددوا لي موعد الامتحان، كان عدد المتقدمين كثيرًا ولكن الأسئلة كانت سهلة، فلقد سألني الشيخ في

سورة البقرة التي كنت أحفظها عن ظهر قلب، فكل من يأتي إلى المسجد يبدأ بها، فأجبت بسهولة، كنت أخشى من سؤال الفقه ولكنه أتى سهلًا فلقد سألني عن سنن الفطرة، عدت إلى البيت يملؤني السرور والتفاؤل والسعادة والفرح فمن يرد الله به خيرًا يفقه في الدين، وكان الممتحن مسرورًا من إجابتي وقال لي: فتح الله عليك.

طلبت من أمي الدعاء، كانت حالتها قد تدهورت، وتأخذ مسكنات قوية كنت أجدها في الصيدليات بصعوبة، فهي نادرة لارتفاع ثمنها.

رجع إلي تفاؤلي وإقبالي على الحياة فالأمل محرك الحياة، ذهبت بعد أسبوع لأسأل عن النتيجة في المعهد، فلقد كان الامتحان شفهيًا وكان الشيخ يكتب الدرجة في الحال، فما الداعي لتأخرها أكثر من ذلك، سألت في الإدارة فقال لي أحد العاملين أن النتيجة تظهر بعد ثلاثة أشهر لدواعي أمنية ومن له ملف في أمن الدولة فلينس هذا الأمر تمامًا، رجعت البيت حزينًا، بقدر ما فرحت حزنت، ولكنني قلت لنفسي حتى لا يدمرني الحزن: ربما أنجح، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا؛ فالأمر له وحده.

نادى المراقب في اللجنة بصوت عال بأن وقت الامتحان قد انتهى، كان الامتحان طويلًا ولم أجب على نصف الأسئلة، تصبب العرق على وجهي من الخوف، رجوته أن يمهلني بعض الوقت، رفض، ألححت عليه أن يترك لي فرصة بلا فائدة، فقمت من النوم وأنا أتفصد عرقًا.

ذهبت في ذلك اليوم لأرى النتيجة وأنا غير مستبشر بما رأيته، وقفت أبحث عن اسمي فلم أجده مع الناجحين، فعدت إلى البيت وأنا أغالب الحزن، قابلت رجلًا كان يأتي إلي في المسجد لأعلمه القراءة وكان يتعتع ويقرأ بصعوبة بالغة، وتعجبت عندما علمت منه أنه قد قُبل في المعهد، فاسترجعت وحمدت الله، **تذكرت قول الشيخ سيد:**

فلتعمل صالحًا وتصبر على ما أصابك.

ولكن يبدو أن تعليم الناس في المسجد والجلوس معهم وسماع شكواهم كان يملأ الفراغ الذي شعرت به بعد ذلك، فلقد كنت أريد الزواج وليس معي ما يمكنني من ذلك، حتى الدراسة التي كانت ستساعدني في ملء هذا الفراغ بشيء نافع لم أستطع أن أوفق فيها، وكعادتي دائمًا الهروب من الهم بعمل أي شيء فقد سافرت إلى مرسى مطروح ونزلت في فندق على شاطئ البحر، كنت محتاجًا

لقضاء يومين وحدي في هدوء، وكانت مرسى مطروح في هذا الوقت في منتصف شهر سبتمبر خالية من المصيفين لبدء الدراسة، وكانت أسعار الفنادق رخيصة، استمتعت بالمياه الزرقاء الصافية وحدي، كان الجو بديعًا، والمياه نقية، وكنت أقضي وقتي أسبح في البحر فأنسى همي، أو القراءة على الشاطئ، وذات مرة شعرت بسحب شديد للمياه لي يبدو أنني نسيت نفسي وسبحت بعيدًا عن الشاطئ فدخلت في منطقة سحب، خرجت منها بصعوبة وبعد معاناة، حمدت الله على نعمة الحياة، فلقد أعطاني الله فرصة أخرى.

بعدما هدأت نفسي سافرت إلى عمي عبد الهادي، كنت مصممًا على معرفة كل شيء عن أمي، هل كانت عاقة لأمها حقًّا؟ وهل نحن نستحق ما عندنا من هم وكرب لأنه يطهرنا من صفة العقوق التي تجري في دمائنا؟

وأنا في الطريق إلى عمي رأيت الحقول أشباحًا ورأيت كل شيء أخضر أسود ولم أر جمالًا للمياه الجارية ولا لأسراب الحمام الطائرة، كل ما رأيته السواد، وكان الهواء ثقيلًا، ربما لأنني مضطر لأسأل عمتي عن أشياء ربما تكشف عن أشياء كريهة.

الحُلْم الغريب

قابلت مصطفى في البلد وأنا ذاهب إلى عمي، فرحب بي وصمم على تناول الغداء معه، ذهبت معه إلى البيت، لم يكن البيت بعيدًا عن بيت عمي، كلمني مصطفى عن ليبيا وعما حدث بعد عودتي، **وقال لي مؤنبًا:**

ما الذي جعلك تتركنا يا رجل؟ فبعد سفرك مباشرة تحسنت الأمور كثيرًا.

فقلت له:

لعل بسبب هروبي أحس صاحب الشركة بلزوم تحسين الأوضاع الغير آدمية.

فقال لي:

لا، لقد علمت قبل رحيلك بأنهم يجهزون لتغييرات جديدة لتحسين أوضاع العمل وكانوا يبحثون فيها، لكنني نسيت إخبارك بهذا الأمر لانشغالي مع زوج أختي، فقد مرض ودخل المستشفى وكنت ألازمه، كانوا يشتبهون في الطاعون، لكن الحمد لله لم يكن كذلك.

سألته بسخرية:

ما هذه التحسينات؟ هل أصلحوا عين الموقد؟

أم اشتروا مصايد للفئران؟

فقال لي:

بعد رحيلك مباشرة طلب صاحب الشركة عمل تحاليل طبية لكل العمال، ومن كان مريضًا بالكبد استبعده، وكل من يحشش طرده، وأصدر تعليمات بوضع المتعلمين معًا والعمال معًا، ولو لا يوجد إلا متعلم واحد يخصص له حجرة وحده، المرتبات تدفع كل شهر، الإجازات كل ستة أشهر.

كنت متعجبًا وأنا أسمع، **ثم أكمل مصطفى:**

تطهر الحجرات والمكاتب كل أسبوع، علاج العمال على نفقة الشركة، بنى ثلاثة دورات للمياه إضافية، وأمر بتنظيفها يوميًا، وخصص واحدًا للإداريين والباقين للعمال، وجهز مطبخًا للإداريين.

لم أصدق نفسي وأنا أسمع، فلو كانت الأوضاع هكذا لما عدت، ولكن قدر الله وما شاء فعل.

سألته عن عمر، **وقلت له:**

من المؤكد أنه يكره المصريين بسبب خذلاني له.

فقال:

على العكس لقد قال لي إنه كان على يقين بعدم عودتك وساعدك متعمدًا وهو يعلم ذلك، **وقال لي:** إنه إنسان وليس جمادًا.

الحُلْم الغريب

عندما علمت **عمتي كريمة** بما عرفته هزت رأسها وحكت لي كل شيء، فارتحت بغض النظر عن حالي وحال أمي، فلأن تعرف سبب ما أنت فيه خير لك من الحياة وأنت تشعر بالسخط أو الظلم، من الطبيعي أن المسلم يرضى بقضاء الله ويسلم له، ولكنه لابد أن يفهم هل ما يحدث له اختبار أم عقاب، حتى يصلح من نفسه ولا يتمادى في غيه، كانت الحكاية غريبة وأليمة، بكيت كثيرًا بعد سماعها وحدي عندما دخلت في حجرتي لأنام ولم أنم، استرجعت كل كلمة قالتها لي عمتي، **قالت لي:**

ثريا أمك يا بني مسكينة عقلها ضعيف، كانت ضحية لأب قاسي، فلقد طرد أمها وهي صغيرة ورفض أن تذهب معها نكاية في أمها، فكانت ثريا وهي طفلة صغيرة تجلس في البيت وحدها بعد أن يغلق عليها والدها بالمفتاح، ثم يعود إليها ليلًا ومعه الحلوى ويبدأ في عمل غسيل مخ لها، يلقنها أن أمها كاذبة وسيئة، كانت أمها طيبة وحنون فتعود مرة أخرى من أجل ابنتها **فتقول لها ثريا:** أنت كاذبة كما كان يعلمها أبوها، لم تكن تفهم أمها أن ثريا ضحية لأبيها وأن عقلها كان ضعيفًا من الحبس طوال النهار وهي طفلة، كانت دائمًا تقارن بينها وبين توفيق **وتقول:** توفيق حنون، كان وهو صغير عندما يطلب منه والده أن يشتمني يرفض ويقبلني **ويقول له:** أمي طيبة،

كان عندما يعطيه قطعة من اللحم ويترك أمه من غير طعام تجلس وحدها في حجرة أخرى تأكل كسرة خبز، كان توفيق يتسلل إلى الحجرة الأخرى ويعطيها اللحم، **كانت تقول له:** كلها أنت يا بني لقد أكلت، **فيقول لها:** لا أنت لم تأكلي لقد رأيتك.

لم تدرك جدتك أن حبس أمك وحدها فترات طويلة بدون أية وسيلة للتسلية من الممكن أن يؤثر على عقلها، فلم يكن يوجد تلفزيون وتوفيق كان صغيرًا جدًا، لذلك كانت دائمًا تأخذه معها لأنه يعتمد عليها في الطعام والشراب والملبس بعكس ثريا فقد كانت تكبره بخمس سنوات.

سألت عمتي:

ألم ينصح أحد جدي بعدم ترك ابنته وحدها؟

فابتسمت عمتي بمرارة وقالت:

ينصح؟ من يجرؤ على نصحه؟ لقد نصحه رجل جارنا في القرية بذلك، في نفس اليوم قبض عليه رجال الشرطة بتهمة الشغب والانضمام إلى الفدائيين، وهذا الرجل لم يكن يعرف شيئًا عن الفدائيين، ومن ساعتها ولا أحد اقترب من جدك.

وذات مرة طرد جدتك من البيت كانت تبكي من أجل أولادها، وتريد العودة من أجلهم، فذهب والدها إلى جدك وطلب

منه أن يطلقها، وضربها والدها لتعلقها بأولادها، ولكنه لم يوافق على طلاقها وأخبر والد زوجته أنها كاذبة تفتري عليه وإذا أراد الدليل على ذلك فليسأل الأطفال فالأطفال لا يعرفون الكذب، ثم وعد ثريا لو قالت أمام الناس أن أمها كاذبة سوف يأخذها معه إلى القاهرة ويشتري لها الحلوى، وذلك فهمناه من سلوكه معها، فكلما شهدت على أمها كان يخرج معها ويشتري لها ما لذ وطاب، **فقالت ثريا بثقة بالغة:** أمي كاذبة، فأبي طيب يشتري لنا اللحم والحلوى، أما توفيق فلم ينطق؛ خاف من بطش أبيه عندما رآه يضرب أمه بوحشية، فعاد والدها وهو **يقول لنفسه:** لقد أديت واجبي، أردت طلاقها ومساعدتها ولكنها رفضت، هي حرة.

كانت جدتك تخاف من بطش جدك لدرجة أنها لا تفتح فمها وهو موجود، فلقد رآها مرة وهي تتمتم بفمها فضربها ضربًا مبرحًا، **وقال لها:** ماذا تقولين؟ كانت أمي بجانب دارها عندما سمعت الصراخ وسمعت جدك وهو يقول بصوت عال لزوجته: أكرهك وأكره شعرك الأصفر ولونك الأبيض الكالح، كنت أتمنى الزواج من امرأة سمراء خفيفة الروح والحركة، فأسرعت إلى جد ثريا تخبره أن يأتي وينقذ ابنته فرفض **وقال لها:** هي تريد ذلك، فدخلت أمي إليها تواسيها ووجدت إحدى الجارات عندها، كان زوجها قد

خرج، **فقالت لها الجارة:** هذا الرجل حلال فيه السم، فقد رآه ابني في البندر (القاهرة) وهو يسير في الطريق مع امرأة سمراء خليعة وهما يضحكان، لم أكن أعرف أن أبا توفيق يعرف الضحك، أول مرة يراه ابني يتمايل من الضحك مع امرأة، أنا على استعداد أن آتي إليك بالسم وأنت عليك أن تسمميه، فابتسمت جدتك رغم دموعها المنهمرة من كلام هذه الجارة.

بعدما كبر توفيق كان دائمًا يُسمِع أمه الكلام الطيب ويقبل يديها، مع أنه كان ..... ثم ترددت عمتي كريمة قليلًا، كانت تود أن تقول شيئًا ثم تراجعت، فسألتها كنت أود معرفة كل شيء، **قالت:**

بصراحة يا بني، كان توفيق له أخطاء، فقد سمعنا أنه عندما كان يذهب إلى القاهرة كل عام لشراء بعض لوازم البيت يسهر في الملاهي الليلية، **ثم قالت:**

أستغفر الله يا بني، لم أر بعيني ولكني سمعت، والله أعلم، وعندما مات والده ظلت أمه صامتة عدة سنوات تخشى أن تتكلم عنه كأنه موجود، ثم تكلمت فلعنت فيه وفي قسوته، ومن الخوف تخيلت أنه أتاها ليلًا وضربها لأنها تتكلم عليه.

لم يكن توفيق يراجعها في كلامها فلقد رأى قسوته بنفسه، فلطالما ضربها أمامهم، وكان يأكل وحده ويقسم عليها أن لا تذوق اللحم، أما أمك فكانت تدافع عنه دائمًا وتنهرها **وتقول لها:** لا تقولي هذا الكلام على أبي إنه كان طيبًا حنونًا، كان يشتري لي الحلوى دائمًا.

كانت أمها تتحملها حتى أصبحت ثريا تردده في كل اجتماع بين أفراد العائلة: أمي كاذبة، أبي طيب، **ثم قالت لي عمتي:** التلفزيون الآن يا بني علمنا كل شيء، أمك كانت مريضة بمرض الخوف من أبيها، هذا الخوف جعلها تردد ما تسمع وتكذب عينيها، لقد كانت أمها تبكي بحسرة **وتقول:** حسبي الله ونعم الوكيل فيها لقد رأت بعينيها ضرب أبيها لي وتجويعه، أنا أشك أنها ابنتي، تنهدت عمتي **وهي تقول لي:** أمك ضحية أب ظالم، تعجبت من معرفة عمتي كريمة كل هذا، **فسألتها:**

أنتم جيران وأقارب فكيف وافق جدي على زواج أبي منها؟

فقالت لي:

أمها كانت طيبة ووالد أمها أيضًا، ولا تنس أن أمي كانت تمت بصلة قرابة معها، وكانت تشفق عليها، برغم أن والدك لم يكن موافقًا على الزواج منها **وقال عنها:** لا أريدها فهي بلهاء، **فقالت**

له أمي: البنت ستعقل عندما تكبر وستصبح مثل أمها، فيكفي أنها تصلي دائمًا وتصوم، فتعجبت **وقلت لها:**

وهل من الغريب أن تصوم فكل الفتيات تصوم.

فقالت لي وهي مترددة:

أستغفر الله يا بني، لأن أخاها توفيق لم يكن يصلي ولا يصوم، هداه الله.

ثم قالت لي عمتي:

وعندما خطبها أبوك قابله أحد سكان القرية، فعرف منه خطبته لها، **فقال له:** أنصحك لا تتزوجها، فأبوها رجل سيء. ولكن أمي نصحته بألا يلتفت لكلام الناس **وقالت له:** حرام يا بني، لا تزر وازرة وزر أخرى.

عدت إلى الاسكندرية وعقدت العزم على عدم التفكير في أي شيء سوى عملي وتصميم موقع إلكتروني لنشر الأحاديث الصحيحة وشرحها من الكتب المعروفة بدون زيادة مني، كنت أبتغي بذلك وجه الله، حتى لا ينقطع عملي الصالح وخاصة أنني

تركت تعليم الناس، فبرغم أخطائي علمت عددًا لا بأس به القرآن وختم على يدي بضعة أنفار، وكانوا يدعون لي ويكنون لي المودة.

توسعت في الموقع فنشرت ترجمة للأحاديث باللغة الإنجليزية وبعض قصص الصحابة كذلك رضوان الله عليهم، وكنت أتلقى في بريد الموقع أسئلة من غربيين ومنهم **خديجة** ولكنني لم أكن أفكر أبدًا في الزواج بها أو بغيرها، ظلت خديجة تراسلني لمدة عام تسأل عن الإسلام، وكانت فاطمة أيضًا تشرف على الموقع معي، وكانت تراسل خديجة أيضًا، ثم انقطعت تمامًا عن مراسلتنا لمدة عام حتى نسيناها.

ثم عادت إلى المراسلة وأخبرتنا بإسلامها وإنها سوف تأتي إلى مصر، فدعتها فاطمة لزيارتنا.

لم أمكث مع خديجة واكتفيت بالسلام عليها والترحيب بها، وتركتهن معًا وذهبت إلى المحل، أحبت خديجة فاطمة فدعتها فاطمة على الطريقة المصرية بأن تبيت معها، فوافقت خديجة، فاتصلت بي فاطمة تستنجد بي **وتقول لي:**

الحقني يا إبراهيم، قلت لها أن تبيت معي فوافقت، لم أكن أقصد ما قلته كما نقول لبعضنا، كنت أظنها مثلنا، ماذا أفعل؟

فقلت لها:

لا بأس، لن أبيت الليلة في البيت.

وبت في أحد الفنادق، وكلمت فاطمة وقلت لها أن تخرج معها وتريها معالم الاسكندرية، كانت فاطمة كلما تدعو **أنجيلا** لشيء- وهذا اسمها قبل تغييره- توافق.

كان من الصعب على فاطمة أن تغير طبيعتها المصرية المجاملة.

نظرت مشدوهًا إلى الأسود أمامي وكانوا تسعة بينهم نمر، كان شكلهم رهيبًا، يفورون بالقوة والحيوية، والأغرب طاعتهم للمدرب، كان بإمكانهم الفتك به في لحظة، ولكنه الإنسان الذي كرمه الله بالعقل استطاع أن يروضهم. وعندما ترددت كلمة العقل في ذهني **سألت نفسي:** هل أنا أستعمل عقلي؟ أم أنا مستسلم لقدري؟

قبل سفر خديجة بيوم اتصلت بي فاطمة تبارك لي، **فسألتها:**

خيرًا؟

الحُلْم الغريب

فقالت لي:

لقد سألت خديجة:

هل تقبلين الزواج من إبراهيم؟

فقالت لي:

سأفكر.

أشعر أنها موافقة.

كانت مفاجأة لي، فأنا لم أطلب منها ذلك، ولكنني أعرف فاطمة وحنانها، لقد أرادت أن تخدمني وتسدي لي معروفًا، لم أفرح، فكلمة سأفكر ليس معناها الموافقة، كانت أمي صاحبة الفكرة، لقد أخبرتها فاطمة بما حدث من نهال، وقالت لي أنها ستتقبل هذا الأمر، وألحت علي بأن أخرج مع فاطمة وخديجة إلى أي مكان للنزهة والتعارف، وتحت إلحاحها خرجنا معًا إلى قرية الأسد، كانت ليلة سفر أنجيلا فاستأجرت سيارة للتنزه ولأوصلها في اليوم التالي، وتناولنا الغداء في القرية، وشاهدنا السيرك الذي أعجب خديجة بدرجة كبيرة.

ليلة رحيلها رأيت في منامي نفس الرؤيا: بعد موت أمك كل شيء سينصلح، فقمت متشائمًا.

في اليوم التالي ذهبنا لتوصيل خديجة إلى المطار، نزلنا مبكرين لأريها بعض معالم القاهرة، وفي الطريق كانت تسألني عن مصر والمصريين، وكان لدينا وقت كاف لنمر على الأهرامات، واشتريت لها بعض الهدايا التذكارية، كنت مكتئبًا إلى حد ما، وأحيانًا كنت أستبشر خيرًا، فالأمور سوف تتحسن في يوم ما وعلي بالصبر، وكان حدسي في محله، فبعد سفر خديجة لم تتصل مطلقًا، ولم ترد على فاطمة، أرسلت فاطمة لها عدة رسائل ولم ترد، فاستسلمت لقدري.

قبل عيد الأضحى بيومين كان المحل مزدحمًا كالعادة، فتناهى إلى سمعي كلمة فاطمة كلية الفنون الجميلة تسكن في كليوباترا، بلهاء وتعالت الضحكات، فاقتربت لأسمع ما يقوله الفتيات الواقفات ينتظرن دورهن لدخول حجرة القياس، فسمعت إحداهن **تقول**: نعم يحيى له عدة إيميلات بأسماء بنات، ويتعرف على البنات ويعرف أخبارهن، **فقالت أخرى**: ولعل فاطمة هذه ولدًا هي الأخرى، وتعالت الضحكات.

قطع حبل أفكاري دخول عمر علي وهو سعيد بما فعله، فلقد اهتدى إلى فكرة ليسلي بها العصفور الجريح فلقد أمسك بعصفور

وديع هادئ ووضعه معه في القفص، وقال لي إنه سوف يطلقه بعض الوقت بين الحين والآخر. كان سعيدًا بفكرته.

وصمم أن أنزل إلى الحديقة لأراه.

دعيت فاطمة ذلك اليوم لحضور عرس صديقة لها، وقبل أن تخرج توجعت أمي بصوت عال، فجلست فاطمة ولم تشأ الذهاب ولكن أمي ألحت عليها بالخروج، **وقالت لها:** معي إبراهيم إن احتجت شيئًا، كانت أمي حزينة لفشل طفل الأنابيب الذي حاولت زوجة علي إجراء هذه العملية وفشلت، لم تكن المرة الأولى بل الثانية، وكان حزن أمي كبيرًا، بالنسبة لي رأيت الأمر لا يستدعي كل هذا، فهو لايزال شابًا والأمل موجود ولكنه قلق من أن يحرم من الإنجاب، **قال لي:** لو أعلم أنني سأنجب ولو بعد عشرين سنة سأكون سعيدًا، أما أن أعيش بفكرة أنني لن أنجب أبدًا فهذا يجعل حياتي جحيمًا، نصحته أن يصبر ولا يستعجل حتى لا يصاب بالإحباط والاكتئاب.

كان جيراني في العمل يحبونني ولا يخفون عني شيئًا ولقد أخبروني بمجيء بعض الناس وسؤالهم عني فاستنتجت أنه عريس لفاطمة، فاستبشرت خيرًا.

الحُلْم الغريب

في حفل عرس صديقة فاطمة رآها **وسام** وهو مهندس في الثلاثين من عمره، كان قريب العريس، وسأل عنها حتى عرف عنوانها وتقدم لخطبتها، فرفضت، لم تكن قد نسيت تجربتها الأولى بعد، سمعتها أمي وهي تحدث صديقتها في الهاتف **وتقول لها:** لا، بملء فمها، فبكت أمي، كان شكل أمي هزيلًا من المرض مما يجعل الحجر يتأثر من شكلها، لذلك وافقت فاطمة من أجلها، كان جسم أمي قد نحل نحولًا شديدًا، وكنا نتوقع موتها في أي وقت.

كلمت صديقة فاطمة أمي وأخبرتها أن العريس أعجبته فاطمة لأدبها الجم فهي الوحيدة من صديقاتها التي لم ترقص في الفرح ولم ترفع عينيها في وجه أحد لقد راقبها طوال الفرح، إنها مدهشة ليس منها اثنان في هذا العصر، عندما سمعت فاطمة هذا الوصف ضحكت رغمًا عنها وأخبرتني بسبب عدم رفع عينيها، فبمجرد دخولها الحفل تذكرت حفل خطبتها فلم تر أمامها أي شيء، وجلست واجمة ولم ترفع عينيها على مخلوق حتى لا يلمح أحد دموعها، حيث كانت أول تجربة سيئة في حياتها.

أتى العريس وكان شابًا مقبول الشكل صاحب مكتب استشارات هندسية، وقال إنه يكسب كثيرًا ولكن هذه الأيام يمر

بركود في العمل لذلك سيتزوج في شقة بالإيجار حتى حين، وكان لديه سيارة بسيطة، سألت عنه جيرانه وفي محل عمله، فعرفت أنه ثري وكريم، ولكن به صفة واحدة كريهة وهي الشك، لا يثق في أحد، فأخبرت أمي فبكت وهي تقول الكمال لله وحده، أجمل من أختك ولم يتزوجن بسبب البطر، كانت تخاف على فاطمة من العنوسة.

وكانت فاطمة تريد الزواج برجل طيب حتى تتقي الله فيه وتطيعه، فكيف بالحياة مع رجل مصاب بمرض الشك، فالتمست له الأعذار بأنه صاحب عمل ولقد تعاملت مع الناس ورأيت بنفسي أن معظم الناس الله أعلم بهم، وافقت فاطمة تحت إلحاح أمي وبكائها، وعندما رأيتها جالسة أمام وسام والحزن باديًا عليها أخبرتها أن هذا ليس في مصلحتها، فربما بمعاملتها الحسنة له تعرفه وتفهمه وتجده يليق بها، ورويدًا رويدًا بدأت فاطمة تفهم وسامًا، ولكنها لم تكن سعيدة معه بالقدر الكافي، كانت خائفة من شكه وخاصة بعدما لاحظت أنها مراقبة، وعندما أخبرت أمي بذلك **قالت لها:**

هو لا يعرفك يا بنتي، وأنت تعلمين بنات هذه الأيام، فمن حقه الاطمئنان من أخلاقك ولكن ثقي عندما يعرفك تمامًا لن يراقبك.

كان علي مشغولًا عنا بتلهفه على الإنجاب، ولقد ذهب إلى طبيب جديد كما نصحه بعض الأصدقاء، فكشف عليه ونصحه

بإجراء عملية جراحية له، كانت باهظة التكاليف فصمم رغم ذلك على إجرائها، وزاد من الدروس الخصوصية بطريقة متواصلة.

خرجت فاطمة مع وسام من أجل أمي؛ فلقد طلبت أمي منهما الخروج ربما يساعدها الخروج على الكلام، لأنها لم تكن تتكلم معه، فاضطررت للخروج معهما كمحرم.

خرجت معهما إلى نادي سبورتنج، وهو ناد بديع، مساحته شاسعة، وسعدت بجمال الخضرة، وجلسنا نتحدث في موضوعات شتى، ثم تركتهما قليلًا وجلست على منضدة أخرى لأتكلم في التليفون، وطلبت عصيرًا من المانجو لي ولهما، وعندما بدأت أشرب مستمتعًا بجمال الطبيعة وجمال العصير الذي أحبه، ظهرت في الأفق سلوى، فقمت من فوري، متوجهًا إلى باب النادي واستأذنت من وسام بالانصراف لظرف طارئ، وتركتهما وخرجت مهرولًا، لقد كانت سلوى عضوة في هذا النادي، كيف نسيت ذلك؟ ربما بسبب نسياني أكرر تجاربي بلا يأس، وتذكرت ماحكته لي سلوى من تجارب لها في هذا النادي، فلقد تعرف عليها أكثر من رجل ولم يكن في نيتهم الزواج وإنما تمضية الوقت، فهم كانوا أرامل، وأولادهم

متزوجون، لذلك يعانون من الملل، والزواج سيكلفهم مالًا كثيرًا أما العلاقات العابرة فلن تكلف إلا سعر الأطعمة والمشروبات، وربما يصل إلى هدفه بدون التورط في مهر وشبكة ومشاكل ربما يثيرها الأولاد بسبب الميراث، كانت سلوى تخرج مع الرجال ولكنها لا تفعل اكثر من ذلك وبإذن والدتها التي رأت أن هذا ضروري لكي تتزوج، ولكن كل محاولاتها باءت بالفشل.

وأنا في طريقي إلى الخروج رأيت نساء غير النساء اللاتي أقابلهن في المسجد، شتان بينهما في الشكل الخارجي، أما الحزن فهو واحد عند كل البشر ولكن الوجوه الحزينة هنا تخفي حزنها وراء مساحيق التجميل ووراء دخان التبغ أو المجلات الأجنبية أو مسحة كبرياء، أما الفتيان فتحتاج بعض الوقت لتعرف هل هو ولد أم فتاة، هذا بالطبع لا ينطبق على كل الشباب ولكن عددًا كبيرًا منهم كذلك.

تكرر خروجي معهما حتى شعرت باختناق، وذات مرة جلست معهما في جرين بلازا ونمت وأنا جالس من التعب؛ فلقد كانا يخرجان في أوقات غريبة بالنسبة لي ومناسبة بالنسبة له، وهي لم تكن تعمل فلم يكن لديها مشكلة، وعندما رأيتهما وقد بدئا يتعودان على بعضهما وبدأت أسمع حوارهما اكتشفت وكذلك اكتشفت فاطمة أن بينهما أشياء مشتركة كثيرة، وعندما رأيت فاطمة كفت

عن عمل الكروشيه، وبدأت تهتم بشكلها وبالبيت، وبدأت تدخل المطبخ، وتطبخ أطعمة جديدة؛ أدركت أنه آن الأوان لعقد الكتاب لأنني تعبت من مصاحبتها، وكلمته في ذلك فسعد هو الآخر، وساد البيت جو من الفرح والتجهيزات المعتادة، نظرت إلى الملابس التي نسجتها فاطمة من الكروشيه والمفارش **وقلت في نفسي**: لو كل غاضب أخرج غضبه في أشياء نافعة جميلة كهذه؟ فلقد كانت الملابس أكثر من رائعة.

تدهورت حالة أمي بشدة ولم تكد تشعر بما يحدث حولها وكان معظم وقتها في المستشفى، ولكي تحضر عقد الكتاب أخذت مسكنات قوية، كان وسام أسمر اللون، طويل القامة، يبدو عليه الجد، أحبته أمي لما رأت منه من صفات وفرحت به، ثم فوجئنا يوم عقد الزواج به وقد جاء راكبًا سيارة مرسيدس، ظننته استعارها من أحد أقاربه أو أصدقائه ولكنني عرفت في نفس اليوم من فاطمة أنها ملكه، وأخفى ذلك لخوفه من الزواج من فتاة طامعة في ماله، ثم أظهر بعد ذلك كل ما لديه، فلقد كان يمتلك شقة في حي راق، وكان ثريًا بحق، ولكن الشك لم يتركه فلقد كان خط التليفون في شقته ومكتبه واحد، ولكن فاطمة تقبلت هذا العيب

وخاصة بعدما وجدت صفاتًا كثيرة فيه مشتركة بينهما، لم نلتفت إلى ما أخفاه عنا وسام، ولم نعلق على هذا الأمر، طلبت أمي من فاطمة إتمام الزواج بسرعة وخاصة أن كل شيء جاهز، ولكن ماتت أمي قبل أن تتزوج فاطمة.

حلمت بأن بابًا مغلقًا فُتح لي، استيقظت من النوم وأنا منشرح الصدر سعيدًا متفائلًا، دخلت حجرة أمي فرأيتها ضعيفة في غاية التعب، وقد وضعت فاطمة أمامها قطعًا من التفاح مقشرة، وجلست فاطمة قبالتها تتحدث معها عندما رأتني فاطمة قامت لتجهز لي الإفطار فطلبت منها أن لا تعمل لي شيئًا فقد كنت أشعر بالشبع لما رأيته في منامي، وقصصت ما رأيته لفاطمة وأمي، **فقالت أمي:**

خيرًا إن شاء الله؛ فأنا أدعو لك يا بني أن تفتح لك جميع الأبواب.

فضحكت فاطمة وقالت لي:

تغط جيدًا وأنت نائم فأنت مثلي حظك نحس.

شهقت أمي في هذه اللحظة، وذهبت في غيبوبة، فاتصلت بسرعة بالطبيب الذي جاء وأخبرنا بوفاتها.

لم أتوقع أبدًا أن تكون جنازة أمي بهذا الشكل فلقد فوجئت بها رهيبة العدد، لا أعلم من أين أتوا، هذا غير ما سمعته وأنا أسير في الجنازة: والدة الشيخ العلامة إبراهيم... نعم إنه علم أجيالًا ....إنه يوزع أموالًا طائلة على الفقراء.... نعم إنه هو صاحب المسابقات ذات الجوائز الكبيرة في المسجد.... إنه زوج كثيرًا من الشباب وساعد كثيرًا و........ إلخ من أشياء لم أفعلها، سألت الحاج ثروت بعدها بعدة أيام عن هذا العدد الهائل **فقال لي:**

كلهم رواد المسجد فلقد أخبرنا الشيخ سيد بعد صلاة الجمعة أن الجنازة بعد صلاة العصر فأتوا جميعًا.

بعد موت أمي رغمًا عني ارتحت من نهال، فلقد استغلت أنني أخشى على أمي خبر تركي لها، وكثفت من الاتصالات بها ومحاولة التودد لي أمامها وأنا عاجز لا أعرف ماذا أفعل، يبدو أن أملها في زواج الدكتور منها انهار، عندما اتصلت بي لتعزيني لم أرد عليها، ففهمت أنني لن أتراجع عن قراري، ولم أعرف عنها شيئًا بعد ذلك.

بعد انتهاء فترة العزاء دخلت على بريدي الإلكتروني فوجدت عدة رسائل من خديجة، ومنها واحدة تخبرني بمجيئها إلى مصر، وبأنها تحبنا وتود زيارتنا، فتعجبت وسألتها عن سبب غيابها

هذه الفترة، وقلت لها إن فاطمة كانت قلقة عليها، **فقالت لي**: إنها تعرضت لحادث وهي عائدة إلى بيتها بعد وصول الطائرة، ومكثت في المستشفى فترة طويلة، ثم خرجت وكانت يداها في جبيرة فلم تستطع مراسلتنا، لم أقل لها أنها كان ينبغي أن تطلب ذلك من أحد أبويها أو أسرتها، ولكنني صمت.

لم تطلب ذلك خديجة من أحد كما عرفت منها بعد ذلك لأن أسرتها تكره العرب والمسلمين، فلم تشأ أن تصدمهم مرة واحدة وإنما أخبرتهم بأن ما يقال عن المسلمين في الغرب كذب، وبدأت معهم بالتدريج، حتى تقبلوا إسلامها.

ثم فوجئت بها تخبرني بقبول الزواج مني، **فقالت لي**: إنها فكرت في هذا الأمر وهي مريضة، وهي موافقة فلقد أعجبتها الحياة في بلاد الشرق، حيث رأت نقيض الحياة عندهم، ولقد قرأت أثناء مرضها الكثير من الكتب المترجمة عن العرب مثل قصص ألف ليلة وليلة، وقصص الصحابة، كانت خديجة مهيئة نفسيًا لتقبل الحياة في الشرق وخاصة بعدما تزوج صديقها بأخرى وتركها فجأة بدون إبداء أية أسباب، فلم تشعر بالأمان بعد ذلك، فبدأت تبحث في المواقع عن كيفية الوصول إلى الأمان والحياة المستقرة حتى دخلت المواقع الإسلامية، وبدأت طريقها للتعرف على الأديان والمقارنة بينها.

في يوم وصول خديجة إلى مصر كانت فرحتي مضاعفة فلقد حملت زوجة أخي علي قبل أن يجري العملية، فقبل أن يستكمل المبلغ المطلوب ظهر على سلمى علامات الحمل وكانت حقًا حاملًا، كانت مفاجأة غير متوقعة، وتم عقد زواجي في الأزهر كما طلبت خديجة.

وسارت الأمور على خير، وتزوجت فاطمة وكان حفل زفافها رائعًا لم يضايقني فيه إلا رؤية وجه زوجة خالي وهي مغتاظة، يبدو أنها لن تهدأ أبدًا إلا إذا دخلنا نحن أو هي القبر، فقد سمعتها **وهي تقول**: أرزاق؛ تركت عريسًا وتزوجت الأفضل، سبحان الله، لم يكن وسام أكثر وسامة من جلال ولكنه كان من عائلة أرقى وأكثر ثراء.

بعد ذلك لازمت خديجة لشراء الجهاز واستأجرت شقة، لم يكن معي المبلغ الكافي لشراء شقة تمليك ولا لدفع مقدم، لكن الأمور كانت تبشر بالخير فلقد راجت حركة الشراء، وتوسعت في التجارة، ثم حدثت مفاجأة لم تكن في الحسبان فلقد اتصل بي مشترٍ لمنزل جدتي، وعرض مبلغ أربعة ملايين جنيه، كان صاحب شركة مقاولات كبيرة، فاتصلت بخالي توفيق وتمت إجراءات البيع بسرعة.
وتم توزيع التركة، فأخذت نصيبي ووضعته في البورصة، كنت في السوق أتاجر وأسمع التجار دائمًا يتكلمون عن البورصة والمضاربة

ببعض المال فيها ولكنني وضعت كل ما ورثته فيها، برغم تحذير خالي لي، **قال لي**: يا بني رزق أرسله الله إليك حافظ عليه، لم ألتفت إليه وكنت أتابع أسعار البورصة ونويت إذا قلت أسهمي بدرجة صغيرة سوف أسحبها فورًا، ولكنني فوجئت بارتفاعها بمبالغ كبيرة فنصحني صديق لي بأن أسحب أسهمي قبل أن تنزل **وقال لي**: الطمع يقل ما جمع، فسحبتها واشتريت الفيلا التي أسكن فيها في ميامي، وتوفيرًا للنفقات تركت الشقة التي استأجرتها، وعشنا في الفيلا قبل أن يستكمل فرشها، وعندما اقترحت ذلك على خديجة في بادئ الأمر لم تعترض وساعدتني كثيرًا على توفير النفقات قدر المستطاع، وتم فرش الفيلا حجرة حجرة، لم نؤثثها مرة واحدة.

عرف خالي توفيق بأمر البورصة وما جلبته لي من خير، وشرائي الفيلا، والثراء الذي ظهر علي، فقد ظللت أزورهم بعد موت أمي، ولم أنقطع عنهم، فلم يكذب خبرًا، ووضع ماله في البورصة، طلبت منه أن يتابع أخبارها لأنني كنت مشغولًا بالتوسع في التجارة، وطلبت من ابنه صلاح المتابعة.

أرادت خديجة السفر لزيارة عائلتها، فخرجنا في اليوم السابق لسفرها للتنزه على شاطئ البحر، ركبنا عربة بحصان من محطة

الرمل وسارت بنا حتى رأس التين، رغمًا عني ضحكت عندما ركبت العربة، فسألتني خديجة عما أضحكني هكذا، لقد تذكرت ما حدث عندما ركبت عربة بحصان أنا وفاطمة بعد ترك خطيبها لها مباشرة، حاولت أن أدخل عليها السعادة، فدعوتها وعلي أخي إلى نزهة بالعربة حتى رأس التين وزيارة القلعة، فركبت أنا وهي ثم وضع علي قدمه ليركب ومرت في هذه اللحظة سيارة تزف عريسًا ونفيرها عال جدًا فهاج الحصان عندما سمع صوت النفير وأخذ يقفز ثم وقع على الأرض، فاندفع علي ليوبخ الحصان كأنه طالب عنده في الفصل، وضربه لينهض بلا فائدة، **وقال له:** أنت حمار ولست حصانًا، ونزلت فاطمة فزعة، وأنا وراءها.

كان صوت أقدام الحصان مثل إيقاع نغم جميل يهدئ الأعصاب، فكرت في الناس في الماضي كيف كانت حياتهم هادئة؛ يسيرون على إيقاع نغم أقدام الخيول ويشربون القهوة على نار هادئة، ويسافرون في أيام وشهور وربما سنوات، يشربون حتى الماء وهم جلوس كما في السُنَّة، أما نحن فنأكل بسرعة ونحن وقوف، ونشرب أيضًا ونحن وقوف بسرعة، وربما نرى أصدقاؤنا وأقاربنا في الطريق فندير وجوهنا، حتى لا يرونا فنضطر للوقوف وتعطيل مصالحنا المعطلة كسفينة قوية لا تتحرك بسبب ريح غاضبة لوثناها بالغبار والدخان فأقسمت بالله لن تحركها حتى نصلح ما أفسدناه.

الحُلْم الغريب

محقت البركة من الوقت برغم تطور المواصلات، وفسدت العلاقات برغم سرعة الاتصالات.

سافرت خديجة، وبت في بيت عائلتي ذلك اليوم، لأكون قريبًا من العمل، ولأرى أصحابي القدامي وللتغيير، ونمت بعد منتصف الليل وأنا أشاهد الأخبار في التلفاز، ثم استيقظت على طرق شديد على الباب نظرت إلى الساعة التي لا أخلعها أبدًا من يدي، فوجدتها الثالثة بعد منتصف الليل، في أول الأمر ظننت أن هذا الصوت من التلفاز وعندما تكرر قمت لأفتح الباب، ثم فوجئت بانتشار رجال البوليس، **سألتهم:** ما الأمر؟ **فقالوا:** مطلوب القبض عليك بتهمة الإرهاب، وتم تفتيش الشقة، ولم يعثروا على شيء، وبالفعل ذهبت إلى أمن الدولة وتم استجوابي وخرجت في نفس الليلة، وعرفت أن هناك من الجيران من ذوي الأحقاد من بلغ علي عندما رآني اشتريت سيارة وفيلا وتزوجت أجنبية، فظن بي الظنون، ولكنني أخبرت الضابط بمصدر مالي.

انشغلت في تجارتي وتوسيع نشاطي حتى فوجئت بسمير عندي في المحل هو وزوجته وابنه كما علمت منه فلقد تزوج فتاة طيبة وسكن مع والدته، رحبت بهم وأكرمتهم، وسألته عن أحواله، صعدت زوجته مع ابنه إلى الطابق الأعلى للبحث عن ملابس لهما، وفي هذه الأثناء سألته عن حاله، كان يعمل في مقهى رغم تعليمه الجامعي، ولكن كان يبدو عليه الرضا، فلقد كان مبعث راحته كما قال لي رغم حظه البائس هو وجود مسجد بجانب المقهى مما يسر له أداء الصلوات كلها جماعة، وزواجه من هذه الفتاة الطيبة كما أخبرني، فقلت له تخيل ماذا حدث لي؟ وحكيت له تغير حظي بعد موت أمي، وتوسع تجارتي، وزواج فاطمة وإنجاب علي، الخطأ الذي فعلته أنني حكيت لسمير أحلامي المتكررة وتحققها بدون تفكير.

عرفت أن أسعار البورصة انخفضت، فاتصلت بخالي توفيق وحذرته ونصحته أن يسحب أمواله الآن، ولكنه رفض **وقال لي:**

سأنتظر حتى ترتفع مرة أخرى.

قطع حبل أفكاري رنين التليفون، كان صبحي، أخبرني بأنه اكتشف أن السارقة هي المرأة التي تأتي كل أول شهر لي، وادعت

أنها أخذت الفستان لتفصل مثله، فعلمت أنها إلهام، فطلبت منه أن يتركها، وعزمت في نفسي أن أتخلى عن مساعدتها، فهي جشعة.

عدت إلى ذكرياتي، لازلت أذكر ذلك اليوم جيدًا، كان يوم الأحد، وكنت وخديجة نصطاد السمك في البحر في رأس التين، وكنا قد استأجرنا مركبًا للدخول إلى أبعد مكان ممكن، كان الجو معتدلًا في شهر سبتمبر، وكانت أجمل نزهاتنا في وقت الدراسة، لهدوء الشاطئ والمتنزهات عامة، قضينا وقتًا طويلًا في الصيد قرابة الساعتين، واصطدنا كمية من السمك مختلفة الأحجام لا بأس بها، وكنا نتسابق في ذلك، ثم تركنا الصيد لنشرب بعض الشاي ونتناول بعض الأطعمة التي أحضرناها معنا، فرن التليفون، وعلى عادتنا المصرية **قلت في نفسي**: اللهم اجعله خيرًا، وسمعت زوجة خالي تستنجد بي لأهدئ خالي، فلقد خسر ماله كله في البورصة وأصيب بالقلب، لم أفسد على خديجة رحلتها، واستكملنا اليوم، وسافرت إليه في اليوم التالي.

عندما وصلت إلى بيت خالي رأيت بعض أحفاده يلعبون في فناء البيت بالكرة وقبل أن أتفوه بالسلام ارتطمت الكرة برأسي ولكن

الحمد لله لم يكن الارتطام شديدًا، فاعتذر الكبار منهم وهم يكتمون الضحك بينما ضحك بقيتهم بصوت عال، **فوبختهم مازحًا:**

شكرًا لترحيبكم بي، ثم سلمت عليهم واحًا واحدًا، وأعطيت كل واحد منهم خمسين جنيهًا، كانت أحوالي المالية جيدة، فأردت مواستهم، وإدخال السرور عليهم، فتهللت وجوههم، واعتذروا لي **وقالوا:**

لم نرك والله يا عمو وأنت تدخل البيت.

وبعضهم انطلق إلى داخل الدار لإخبار خالي بمجيئي، دخلت البيت، ورحبت بي زوجة خالي، وأدخلتني إلى الحجرة التي كان بها خالي راقدًا، وكان ينبعث منها صوت ضحكات وكلام، لم أكن أتوقع أنه لازالت في هذا البيت أفواه تبتسم بعدما حدث، وأول ما دخلت الحجرة رأيت خالي راقدًا على سريره وحوله بناته وأبناؤه وبعض الأحفاد، ورأيت أحد الصغار يعبث بشاربه وهو يضحك معهم، وكانت أكواب الشاي مصفوفة وبعض الفطائر، كان الجو يسوده المرح، فظهر على وجهي التعجب، فلاحظ خالي ذلك **فقال لي:**

الحمد لله، صحيح كانت صدمة أثرت علي، ولكن لابد من المقاومة والرضا حتى لا ينهار جسدي بالكامل.

وأخبرني أن الطبيب نصحه بعدم الاستسلام واليأس حتى يشفى بسرعة، وبرغم استدعاء زوجة خالي لي كنت أرى في عينيها حقدًا تجاهي لم تستطع إخفاءه وبخاصة بعدما دخل عليها أحد أحفادها مخبرًا إياها بما أعطيتهم، فلقد قالت وهي تتنهد وتنظر إلى خالي:

سبحان الله، دنيا عجيبة، بالرغم أن أمه كانت تدعو له ليل نهار.

أذن أذان صلاة العصر ونحن جالسون فرأيت خالي يطلب مني إسناده، فأمسكت يده وتوجه إلى دورة المياه ليتوضأ، لقد جعلته هذه المحنة يعود إلى الله برغم سنه الكبير، وقبل انصرافي عرضت عليه أنه إذا احتاج أي شيء فأنا في خدمته، وأعطيته مبلغًا كبيرًا من المال فرفضه.

ذهبت لزيارة عمي عبد الهادي واستمتعت بجلسة عائلية مع أولاده وأحفاده وعمتي وأولادها وأحفادها، وتكلم هشام معي عن ليبيا وأيامها ومصطفى وأميرة، وعندما تحدث عن أميرة دعت لها عمتي أن تنجب فهي متعبة من الذهاب إلى الأطباء بحثًا عن علاج منذ سنوات، فأحسست لأن عمتي قصدت مواساتي بإخباري بذلك.

قطع حبل أفكاري طرق عنيف على الباب، كان عمر، وكان وجهه شاحبًا من الخوف والدموع تنزل من عينيه، وأشار لي أن آتي خلفه بسرعة، فأسرعت خلفه وأنا قلق **وأسأله:**

قل لي أولًا: ما الأمر؟

فتوجه إلى القفص، ورأيت منظرًا لا أنساه أبدًا ما حييت، فلقد رأيت العصفور يحتضر والعصفور رفيقه واضعًا إحدى جناحيه عليه يغطيه به، بكيت رغمًا عني. **وقلت:** هذا ثمن الحرية أم ثمن إهمالي؟

في الماضي عندما كنت أقرأ في المجلات عن حزن الأميرة فلانة أو الممثل فلان على قطته أو كلبه كان هذا مثار ضحك لي ولمعارفي حتى جربت في ذلك اليوم هذا النوع من الحزن، فلقد خيم على البيت الحزن عدة أيام، وجعلت إسماعيل الخفير يدفن العصفور في الحديقة ولكن شكله لم يفارق خيالي وخاصة لشعوري بالذنب والإهمال في الحفاظ على روح بريئة.

ذهبت لبيت الحاج ثروت لأسأله عن رقم شقة سمير، فأنا أعرف شقة الحاج ثروت لأنني زرته من قبل، ففتحت لي فتاة تضع المساحيق على وجهها وترتدي حجابًا صغيرًا، ثم نادت على الحاج

ثروت: بابا..... زائر بالباب، فتعجبت من أمر الفتاة، **وسألت نفسي:** من هذه؟

أنا أعلم أن بنات الحاج ثروت كلهن منتقبات، فخرج علي الحاج ثروت **وقال لي:** أرأيت الخيبة والفضيحة التي وضعت فيها؟

ثم صمم على دعوتي لداخل الشقة ومشاركته كوبًا من الشاي، ثم قال لي وعلى وجهه بعض آثار الحزن:

بعد زواج كل واحدة مباشرة أفاجأ بخلعهن النقاب، لا أعرف لماذا؟

فضحكت وقلت له:

من المؤكد أنك أجبرتهن عليه.

فسكت، وغير الموضوع، بعد الفراغ من شرب الشاي ذهبت لزيارة شادي لأقنعه بزيارة أخيه ومؤازرته بلا فائدة، فلقد كان مصممًا على مقاطعته والتبرؤ منه، وخاصة أنه اعترف بجريمته.

اتصلت بمحام وذهبت معه لزيارة سمير في السجن، لم أعترف للمحامي أنني السبب في مقتل أمه، أجلت هذه الخطوة في

المرحلة الأخيرة، فإذا رفض سمير الدفاع حتى آخر لحظة سأقف أمام المحكمة وأعترف بكل شيء، ليس مهمًا أن تشوه سمعتي، أعلم أنهم سيفضحونني على صفحات الجرائد، وفي الفضائيات، لن يفضحوني وحدي بل وسيفضحون معي كل الدعاة الجدد وكل من يجلس في المسجد يلقي دروسًا وهو غير مؤهل علميًا، سيحللون شخصيتي، سيتهمونني بأشياء لم أفعلها، سيقولون إنني أعاني من مركب نقص والشعور بالحرمان، وأبحث عن الزعامة والسلطة، سيتهمونني باستغلال البسطاء والضحك على عقولهم، وليس بعيدًا أن يقولوا أن ثروتي جمعتها من مال الصدقة، ولكن لن أبالي، فما يعنيني هو رضا الله تعالى، لقد تسببت في قتل روح بريئة وربما تصبح روحين لو أعدم سمير، هذا غير ما سببته من ألم لزوجة مروان، والله أعلم من أيضًا قد آذيته بجهل.

ذهبت لزيارة سمير كنت أخشى مواجهته، توقعت أنه سيثور في وجهي وربما سيبصق على وجهي، سيلعن اليوم الذي رآني فيه وسيلعن من عرّفه بي، دخلت حجرة أشار لي العسكري بدخولها، وقبل أن أدخلها سمعت صوت سمير وهو يستغفر الله فدخلت فرأيته واضعًا رأسه بين يديه ساندًا مرفقيه على منضدة أمامه، لم أشأ

أن أقطع عليه استغفاره فيبدو أنه لم يشعر بدخولي، وعندما طالت جلسته وخشيت أن تنتهي ميعاد الزيارة ناديت عليه:

سمير؟

ولكن على عكس ما توقعته عندما رآني قفز من الفرحة، ورحب بي ترحيبًا شديدًا وأنبني على تأخر زيارتي، **وقال لي:**

لماذا لم تأت منذ وقت طويل؟ لقد كنت أحتاجك.

بكيت رغمًا عني فهو لايزال يعاملني بإجلال، كأنني شيخ عالم، **قلت له:**

لماذا قتلتها؟

فنظر إلي نظرة حزن، **وقال لي:**

أنت تصدق أنني أقتل؟

فخجلت، فأقسم لي أنه لم يقتلها، وإنما اعترف لأنه لا يريد أن يشنق القاتل الحقيقي.

فسألته: ومن القاتل الحقيقي؟

فأخذ علي عهدًا أن لا أخبر أحدًا، فوعدته إذا كان هذا في مصلحته، **فقال:**

أخي شادي، عندما أخبرته بكلامك وعن الخير الذي انهال

عليك بعد موت أمك، لمعت عيناه **وقال:** إذن لا يوجد إلا حل واحد، ثم صمت.

خرجت من عند سمير وأنا أحمد الله على عدم تورطه، ولكن لو كان أخوه هو القاتل سأكون أنا السبب أيضًا لكلمات تفوهت بها من غير عقل، أسرعت إلى شادي وأخبرته بما قاله أخوه، فأقسم لي أنه لم يقتلها، وكانت نيته عندما قال ما قال إنه لا يجدي إلا حل واحد: الاستغفار وطلب العفو من الله فهو وحده القادر على تغيير القدر ولا يرد القدر إلا الدعاء والتوبة الصادقة، أما انتظار موت أمه؟ فمن العاقل الذي يقتنع بمثل هذا الكلام؟ فقلبه لا يطيعه على ذلك، فهو يحبها، لقد مات والده وهو صغير ورعته أمه وعلمته كل شيء جميل، فيكفي أنها علمته الكرامة والعزة، لقد علمتهم أن يظهروا أمام الناس أغنياء غير محتاجين، كانت تجمعهما على حبة من الطماطم أحيانًا، أو بعض العدس أو الفول، ولا يمدون أيديهم لأحد.

شعر شادي بتأنيب ضميره، فلقد رفض زيارة أخيه ظنًا منه أنه قتل أمه، وكان هو بدوره يضحي بحياته خوفًا عليه، ذهب شادي لزيارة سمير ومعه المحامي ووافق سمير على أن يدافع عنه المحامي.

اتصلت بخديجة أسأل عنها وعن أمها، وأخبرتني بميعاد عودتها، ذهبت إلى المطار في موعد وصولها، وكنت أنتظرها بفرحة كبيرة كأنني أقابلها لأول مرة.

أردت أن أخرج من أحزان الأيام السابقة، فحجزت رحلة لي ولها ولعمر إلى شرم الشيخ، فقضينا خمسة أيام هناك، واستمتعنا بالهواء النقي هناك وسحر البحر.

حمدت الله على براءة سمير وبراءتي.

ظهرت براءة سمير ونشرت في الجرائد، فذهبت لأبارك له وأهنئه، دخلت بيته فكان مفاجأة لي، لم أتخيل أن يكون بيت سمير بهذا الشكل المزري، استغفرت الله في نفسي، فكان يجب علي أن أفطن لمن يحضر دروسي، وأعرف أنه من الذي لا يسألون الناس إلحافًا، تعرفهم بسيماهم، ولكن سمير لم يبد عليه الفقر ولا الحاجة، وكان أكثر شبهًا بالأتراك، فالترك عاشوا زمنًا في مصر واليونانيون كذلك والمماليك لذلك ترى كل الأشكال وكل الأجناس في مصر، الأبيض والأسمر والزنجي والأشقر، كانت مشكلة سمير الكبرى في الجيش فقط، وعدم احتماله الأوامر، أما ملبسه فكان نظيفًا، يبدو

مثل أي شاب عادي، لم يبد عليه البؤس ولا الحرمان، ولم يكن يأتي في الولائم أبدًا وإذا كان جالسًا ودعي إلى الطعام أو الشراب لم يكن ليذوق شيئًا، رغمًا عني نظرت إلى الحيطان التي يبدو عليها أنها لم تطل منذ زمن، والسجادة البالية التي عفى عليها الزمن، والكرسي المكسور أمامي، والتنجيد المتهالك، ثم لمحت قلة في الشرفة في زمن دخلت الثلاجات معظم البيوت، **قلت في نفسي**: لعل أصله يعود إلى الأتراك فعلًا، فهو ثائر دائمًا، لاحظ سمير علامات التعجب المرسومة على وجهي عندما دخلت بيته، فقال لي وكانت المرة الأولى التي يتكلم فيها عن عائلته:

إن أمي تركية الأصل وكانت تعيش في فيلا في بولكلي، وأحبت سائقها.... أبي، وهربت معه وعاشت في هذا البيت كما ترى، ولم تبحث عنها عائلتها.

ثم أخرج لي صور أمه وهي صغيرة مع عائلتها، كانت ترتدي ملابس غريبة وتحتضن كلبًا صغيرًا، ولها صور في حديقة البيت ومع عائلتها وفي بريطانيا، وكانت على درجة عالية من الجمال، تذكرتها وهي تحدثني في الهاتف وتشكرني على ما فعلته مع سمير، لقد كانت تتكلم بطريقة هادئة متأنية، ولكن كيف عاشت هذه العيشة، وكيف

الحُلْم الغريب

تحملت هذا الفقر بعد الغنى، **قلت في نفسي:** حقًا فحكايات الأفلام ليست من بنات الخيال، **فقال لي:**

ظلت تحب أبي حتى توفاه الله، لم تندم لحظة على ما فعلت رغم معاناتهم من الفقر والوحدة.

فيكفي أن العيد لم يكن في بيتهم عيدًا؛ لا أهل ولا أحباب مما جعل شادي وسمير يشعرون بالحزن وأحيانًا الغيرة من جيرانهم وأصدقائهم، فعائلة الأم قاطعتهم لزواجها بغير موافقتهم، وعائلة الأب قاطعوهم بعد موت والدهم خوفا من أن يتحملوا مسئولياتهم، فلم يروا إلا أمهم التي ترعاهم وتخاف عليهم.

لاحظت تغيرًا في شخصية سمير ملموسًا وواضحًا، لقد كان يبدو عليه أحيانًا القلق والضيق، وبعد خروجه من السجن ظهر عليه الرضى والهدوء، يبدو أنه أحس بأنه كان يمتلك نعمة لم يحمد الله عليها، وهي نعمة الحرية.

قبل أن أنصرف من عند سمير جاء له زائر يسأل عنه، كان رجلًا وجيهًا في غاية الأناقة يلبس نظارة سوداء، **فسأله:**

من؟

فقال:

خالك.

فاندهش سمير، ما الذي فكر خاله به بعد كل هذا العمر؟

قال له:

عندما رأيت خبر براءتك في الجرائد عرفت مكانكم، لقد انتظرنا عودة أمك كثيرًا ولكنها لم تعد، آن لنا أن نتصالح يا ابن أختي وتأخذوا حقكم من الميراث الذي...

تركتهما معًا وانصرفت

سرت شاردًا في الطريق، أفكر فيما حدث، ثم قطع حبل أفكاري رنين الهاتف فسمعت صوت أحد العاملين في المتجر يصرخ، ماذا حدث؟

فقال لي: إن المتجر قد احترق، والناس تحاول إطفاء الحريق، واتصلنا بالمطافي.

تمت بحمد الله

صدر للمؤلفة

١. رسول النيل والنسور المقدسة (رواية من جزءين).

٢. الضحكات المكتومة (مجموعة قصصية).

٣. المدينة الغارقة (مجموعة قصصية).

٤. البيت الأبيض (رواية قصيرة).

٥. الشبح (ثلاث قصص قصيرة).

٦. القوة الخفية (رواية).

٧. موت بابا نويل (رواية قصيرة).

٨. نساء الدنيا (رواية بتقديم من الأستاذ الدكتور محمد زكي العشماوي).

٩. لحظة انهيار (رواية).

١٠. الرغبة الملعونة (رواية).

١١. عودة الأشباح إلى روما (قصص قصيرة).

١٢. الحلم الغريب (رواية).